

هذا عبّاسُ يقودُ أُمّةً

ابراهيم منصور

دار الولاء
بيروت - لبنان

هذا
عبّاس يقود أُمّة



لبـنان - بيـروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 25/307
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN 978-9953-546-87-2
الكتاب: هذا عبّاس يقود أُمة
الكاتب:إبراهيم حسين منصور
الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة: الأولى - بيروت ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

هذا
عبّاس يقود أُمّة

المؤلّف

الاستاذ: إبراهيم حسين منصور

دار الولاء

بيروت ـ لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح سيّد شهداء المقاومة، السيّد عبّاس الموسوي قدس سره،

الذي سقطَ ليرفَعَنا.. وأَهدرَ دمَه ودماء اثنين من أهله الأحبّاء..

لتجري في عروقنا دماءُ العزّة والإباء!.

أُهدي هذا الكتاب.

المقدّمة

إنَّ الكتابة عن السيّد عبّاس الموسوي﵀ أمر شائك ومطلب صعب المنال. فالكاتب هنا، سائسُ فَرَسٍ شَموس.. يَلوي عِنانها نحو اليمين فتجنحُ به يساراً، ويعطفُ رأسها يسارًا فترمحُ به نحو اليمين، ويرسلها على سجيّتها فتجمحُ به قُبُلاً وترهقه صُعُداً ونُزُلاً...وقد تقلبه عن صهوتها، أو تقف به في عقبة كَؤود[1]... لاتُسْلِسُ له قيادَها في أيّ حال... فهو منها في حَيْرَةٍ وتردّد، وهي معه في جُموحٍ أو صُدود!.

وليست الصعوبة، ههنا،متأتّية من ندرة المعلومات عن حياة هذا السيّد الجليل، فيقف الكاتب عاجزًا..عن أيّ شيء يكتب؟. بل لعلّها ناتجة من وفرة تلك المعلومات، فيَحارُ، عندئذ..عن أيّ شيء لا يكتب، وهو غارق في خضمّها اللَّجِب؟!..

وهناك صعوبة ثانية تتمثّل بتوخّي الموضوعيّة... إذ ينبغي أن يكون الكاتب موضوعيًّا وحياديًّا إزاءَ المواضيع التي يتناولها بالبحث والتحليل، والشخصيّات التي يكتب عنها في أدب السّيَر

(١) كَؤود: شديدة، صعبة المرتقى.

والتراجم... فإذا أُعجِبَ بفكرة أو بصاحبها تمهَّلَ في إبداء إعجابه حتى لا يَميلَ به هواه كلّ المَيْل فيتسامحَ في ما قد يلوح له في غربال النقد من سَقَط... وإذا استاء من خلل أو سَخِطَ على زَلَل ترفَّقَ في إظهار استيائه وسَخَطِه، لئلّا يؤدِّي به التسرّع والانفعال إلى التعامي عن مواطن الإجادة والابداع.

أمّا في ما خصّ تجربتي في الكتابة عن السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) فقد وجدتُني، في كلّ فصل من فصول هذا الكتاب، أحاول جاهداً أن أكون موضوعيًّا في عرض المعطيات التي تحصّلت لديَّ من حياة هذا السيّد القائد. ولعلّني أَصَبْتُ بعضَ النجاح في كلّ بدء، غير أنني، كلّما أخذني شغَفُ الكتابة وأَبحرَ بي شِراع اليَراع، وجدتُني أبتعد عن حياديّة الباحث لأَغرقَ في رمال السيّد عبّاس المتحرّكة، فأضيعَ في ما يُقارِبُ ذاتيَّةَ الأديب أو وجدانيّة الشاعر.

ووصلت إلى استنتاج، بل يقين: أنّني مع سيرة السيّد عبّاس،لا يمكن أن أكون حياديًا... لم أكن حياديًا عندما وصفتُ أخلاقه وشمائله ومزاياه...بل أحسستُ بأنّني واحد من أولئك الفقراء الذين أَكرمَهم وأطعمَهم، أو أحدُ الأيتام الذين عطفَ عليهم ومسحَ رؤوسهم...

لم أكن حياديًّا عندما رسمتُ ملامح نضاله في الثغور، إذ شعرت بأنني فرد من أبنائه وإخوانه المجاهدين... لي ـ كما لَهم وله ـ نصيبٌ من نوبة الحرس، ونصيبٌ من كنس أرض المغارة... ولدى عودة

المقاومين منتصرين كنتُ أحسبُني جريحاً بين يدَيِ السيّد يداويه، أو شهيداً يُصلِّي عليه...

وبديهيٌّ، بعدُ، ألاّ أكون حياديًّا لدى غِيلته، فقد أحسست يومها، بأنّني قطعة متفحّمة دامية قد تناثرت من جسده الشريف!.

تحسبُني مبالغًا، قارئي العزيز؟ سامحك الله... حسنًا، أدعوك إلى قراءة هذا الكتاب. ولك بعد ذلك أن تحكم في ضوء من الشفافية والنور، على صدق مشاعري أو زَيْفِها.

وثَمَّ صعوبةٌ بعدُ، تنحصر في الشكر والإمتنان لكلّ من ساهم في إنجاز هذا الكتاب. وهنا، قد يَخِفُّ معترضٌ فينتبذُ قائلًا: وأين الصعوبة، ههنا، يا «مولانا»؟!. عَدِّدِ الأسماء، وحدِّد قدر مساهمة كلّ منها في عملك هذا، ثمّ سدِّد أسهم الثناء والإطراء كما تشتهي... أو أَدِرْ مكاييل الشكر بإنصاف...

حبّذا لو كان الأمر بهذا اليُسر.. إذاً لَذَلَّ الصعبُ وانتفى العذر... ولكنّ للمسألة وجهًا آخر؛ فكيف أُحصي عدد من ساهم في هذا العمل، وأنا لا أعرف لهم عددًا؟. فأصحاب الفضل في هذا الكتاب هم أهل السيّد عبّاس من أبنائه وبناته، وأشقّائه وشقيقاته، وأبيه وأعمامه... ومن أصحاب الفضل فيه أصحابُ السماحة والفضيلة، إخوان السيّد وتلامذته في الحوزة والشورى.. ولأبنائه المقاومين

وصحبه المرافقين نصيبٌ وفير، ولعلّه النصيب الأوفر!.

فمِن أولئك جميعًا استُمدَّتْ صفحات هذا الكتاب... ولقد ذكرتُ أسماء قسم كبير منهم في تضاعيف فصوله، فلَهم الشكر على ما أرفدوني به من معلومات قيّمة عن حياة سماحة السيّد عبّاس ﷺ، مع أنّني لم أتشرّف بلقاء واحد منهم. وهذا، لعمري، تقصيرٌ منّي لا عُذر لي فيه.

إلاّ أنّني استعضت عن اللقاءات المباشرة بقراءة الإستمارات التي أعدّتها معهم جمعيّة آثار الشهداء. فلهذه الجمعيّة الكريمة، مديراً وموظّفين، عظيم الإمتنان والتقدير.

وإنّي لأعترف بأنّ لهؤلاء وأولئك جميعًا، في هذا الكتاب، أكثرَ ممّا لي... فهم أصحابه الحقيقيّون.. بل لم يكن لي إلاّ شرف أن أكون قلماً في أيديهم!.

كما يفرض عليَّ العرفان والإنصاف أن أعتذر إلى كلّ من قدّم معلومة عن سماحة السيّد، فأثبتُّها في متن الكتاب وسَهَوْتُ عن ذكر اسم قائلها، أو تعمّدتُ إغفال الإسم لضرورة!.

وأرى لزامًا عليَّ أن أنوّه بكتابين إثنين قرأتهما، في ما قرأت، عن سيرة السيّد عبّاس، هما:

ـ «أمير القافلة»، بقلم فضيلة الشيخ محمد علي خاتون الّذي

أكبرتُ غزارة علمه وعظيم فضله، فهو بشخصيّة السيّد أخبر وفي الكتابة عنه أقدر.

والكتاب الثاني بعنوان «سيّد القادة»، وهو قصّة للكاتبة هيام رزق، وقسم توثيقي لمحمد حسين بزّي. ولقد أُعجبتُ برشاقة أسلوب الكاتبة، فإنَّ لها لَديباجةً أدبيّة جميلة. كما استفدت من المعلومات الموثَّقة التي جمعها الأستاذ بزي بدقة وإتقان. فللكتابين ولأصحابهما الأفاضل شكري وتقديري.

وبعد، فالشكر الأكبر والإمتنان الأعظم موجَّهان لله تعالى الذي أمدّني بالقوّة والعون ووفّقني لإنجاز هذا الكتاب.

أمّا روح السيّد عبّاس التي غمرتني بدفئها وقداستها، ورافَقَتْني، مبارِكةً، خلال سيرتها، فلها في سُوَيداء القلب جُذوةُ حبّ، وفي قرارة العين دمعة ندم!.

كم أشعر بالأسى والحزن لأنّني لم أتعرّف إلى سماحة السيّد عبّاس الموسوي (رضوان الله عليه) عن كثب! كنتُ أسمع عنه وأظنّه ـ سامحني الله ـ كغيره من القيادات والسياسيّين ورجال الديّن التقليديّين. لكن، بعد أن تسنّى لي الاطّلاع على جليل أعماله، وعرفت مدى معاناة هذا الرجل العظيم لإعلاء كلمة الله وتوحيد كلّ المسلمين في محراب واحد وخندقٍ واحد لمحاربة الصهاينة أعداء

الله والنبيّين... وبعد أن انقشعت الغِشاوة عن عيني ورأيت كم كان تعلّق الناس بسماحته ومدى حبّه لهم ووفائهم له... وكم حرم نفسه وزوجه الشهيدة وعياله الطّيبين ليخفّف عن الناس معاناتهم... وكم سهر الليالي، والناس نيام، متهجّدًا ضارعًا إلى الله تعالى أن يخفّف عن شعبه وأمته، فيما ابنه المريض «محمد» أحقُّ الناس بالدعاء!.

بعد كلّ ذلك، وهو غَيْضٌ من فَيْضِ كرامات هذا الرجل الربّانيٍّ الكبير، أراني اليوم أعيش في أجواء روحانيّة وأقف خاشعًا في محراب هذا السيّد الجليل الذي ملأ الدنيا مقاومة ووقف وقفة حقّ يوم عزّ الحقّ، وعمل بكلّ جهد حتى الاستشهاد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

فيا سيّدي، يا سليل آل البيت المطّهرين عليهم السلام، أعذُر تقصيري في ما مضى عن قَصْد بابِك، والتمرّغ على أعتابِك والسعيِ لخدمتك.. فإلّم تعذرني فلا عذر لي عند الله، ولا شفاعة لي عند جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله.. فحسبيَ اليوم دمعةُ الندم، لعلّها تغسل تقصيري وجُحودي... واسمح لي، ياسيّدي، أن أتشرّف بكتابة سيرتك العطرة والمساهمة في نشر فضائلك التي عمّت الآفاق، وإذاعة جلائل أعمالك وكرائم سجاياك.. فلعلّني أستقي رشفة من ينبوع إيمانك الثرّ. رشفةً لا أظمأ بعدها.

نَمْ قرير العين، يا سيّدي، فإنّ أبناءَك المجاهدين الأبطال الذين

كنت تطعمهم بيمينك الطاهرة وتقبّلهم في جبهتهم الساجدة يتابعون نهجك الرسوليَّ المقاوم.

فلقد سَرَتْ دماؤك الشريفة في عروقهم كَحُمَمِ البراكين، ونَفَحَتْهُم بالبطولة والعزّة والكبرياء.

ونُطَمْئنُك، يا سيّدي، فإنّ الطالب النجيب الذي أحببتَ ورعيتَ، والمناضلَ الصلبَ الشديدَ الذي هَيَّأْتَ لمستقبل باهر، سماحة السيّد حسن نصرالله (حفظه المولى) هو خيرُ خَلَفٍ لك يُصْلي الأعداءَ، بإذن ربّه، نارَ السعير..

وبعد، فأسألُ المولى عزّ وجلّ أن يجمعني بك في رفارف الخلد، وعندئذٍ فقُصَارايَ أن أسعى إليك سَعْيَ الفَراشِ إلى النور...

إبراهيم حسين منصور

هذا عبّاس يقود أُمّة

كانت امرأةً مؤمنةً صالحة من أسرة هاشميّة، تزوّجت رجلاً كريماً طيّباً من الأسرة الهاشميّة المباركة نفسها، فجُمِعَ النورُ إلى النور، وكان لهما خلَفٌ كريم.

قطعت على نفسها عهداً غليظ المواثيق بأن تُواسي جَدّتها الزهراء عليها السلام، بمصاب ولدها الحسين عليه السلام، فتُقيم ـ مُثابِرةً ـ لأهل بيت النبوّة المطهّرين مجالسَ العزاء في منزلها، ما أسعفَها العمرُ وترفّقت بهمّتها السنون.

كانت كلّ يوم جمعة، تقرأ بنفسها المجالسَ، فتتقاطر النّسوةُ إلى دارها ويحمَدنَ لها صوتها الدافئ الحنون ونبرتها الحزينة المؤثّرة... واستمرّت على تلك الحال سنوات...

وذات يوم مُثلج شديد البرودة من أيّام الشتاء البقاعيّ المشهود، وقد أغْوَلَتِ الطبيعةُ غاضبةً راعدة، حبسَ الزّمهريرُ النساءَ في بيوتهنّ استثقالاً لغائلة الطبيعة في أوْج سَخَطها وغضبها، وإيثاراً للدفء والعافية.

فحزنتِ السيّدة أيّما حزن... لأوّل مرّة لن تقرأ مجلسَ عزاء

الحسين عليه السلام !. فوَقَرَت[1] في دارها - وقد أخذَتها غضبةٌ هاشميةٌ - وقرّرت ألَّا تقرأ لجاراتها مجلساً بعد ذلك اليوم !. أمّا زوجُها السيّد علي الموسوي فطيّبَ خاطرها ورفَقَ بحالها... إلَّا أنه لم يشجّعها على هذا القرار العَجْلان، بل قال لها:

ـ اعذري الناس يا حاجَّة، فالطبيعة ـ خارجاً ـ قاسيةٌ لا ترحم... ولا يجوز لنا أن نمنع مجالس العزاء في دارنا مهما كلَّف الأمر!.

لكنَّ السيّدة لم تقنع بكلام زوجها، فأصرَّت على موقفها وحُكمها المُبرَم رافضةً أن تُمهل جاراتِها رُوَيْدًا...

يومها كانت السيّدة حاملًا. وفي الليل حلَمَت برؤيا: ثلاث نسوةٍ متدثّرات بالسواد يَزُرنَها، فسألتهنَّ:

ـ من أنتنّ؟

فأجَبنَها مُبتسمات:

ـ نحن السيّدات: زينب وسكينة ورقيّة. نحن نأتي إلى مجلسكِ دائمًا، فلا تمنعي مجالس العزاء في دارك، حتى لو لم يأتِ أحد... فنحن نحضرُ كلّ مجلس!.

سُرَّت هذه المرأة الصالحة برؤياها، وعادت تقرأ المجالس وتُعطّر أجواء منزلها بالأنفاس المباركة.

وذات ليل، رأت في ما يراه النائم، رؤيا ثانية... كوكباً مُنيراً

(١) وَقَرتْ: لَزِمَتْ منزلها بوقار.

وضاءً ينزل من السماء ويستقرُّ في بطنها. سألَت أحدَ الشيوخ عن تأويل ذلك، فأَغبَطَها على رؤياها قائلاً:

ـ ستُنجبين ولداً صالحاً مبُاركاً، يكون فيه لكِ ولأهله وأُمّته خيرٌ وبركة!.

فأحسنتِ السيّدة الظنّ بمآلِ[1] جنينها، واطمأنّت إلى حكمة ربّها وسلّمت مُغتبطة.

وفي يوم الجمعة، شغَلَ النساءَ شاغلٌ منعهنّ من حضور مجلسها، فحزنت من جديد... ثمّ نامت، وقد ثَقُلَ حَملُها ليلتئذٍ، وكانت تُوشك أن تَضَع... فشاهدت في نومها رؤيا ثالثة... إثني عشرَ شخصاً يزورونها، على وجوهم سيماء النُّبْلِ والكرامة... أحدهم طويل القامة، بهيّ الطلعة، مَهيبُ النظر... عرَفَت فيه العبّاس عليه السلام!. كان يحملُ بين يديه الشريفتين طفلاً مباركاً... تقدّم منها وقال لها:

ـ إليكِ... هذا عبّاس... يَقودُ أُمّة...

ثمّ وضع الطفل في حضنها... وقبل أن يغادرها موكبُ النور، قالوا لها جميعاً:

ـ كنا نحضرُ المجلس عندكِ اليوم، وسنحضره كلّ يوم جمعة بإذن الله.

ثمّ ولدت طفلها، فأسمته عبّاساً!.

---

(١) المآل: النتيجة، وهنا: المستقبل والمصير.

ثورة مُبَكّرة

نشأ الصغير عبّاس في بيئة ترقى إلى السلالةِ الهاشمية المباركة. فهو إذاً، من حيث والداهُ، هاشميٌّ مؤصّل، يتحدّر من سبعةِ جدودٍ وسبع جدّات، كلّهم هاشميّون... وقد ظهرت على الصغير، مبكّرةً، أَمارات النجابة والجرأة...

وكانت قد ضاقت الأحوال بالسيّد الوالد، إذ نزلَ به الإملاق[1] واضطربت لديه سُبُل الحياة. فعقدَ العزم على تَرك بلدته «النبي شيت عليه السلام»، ويمّم شطر الكويت حاملاً معه أُسْرَته وجعبةً في صدره زاخرة بالآمال العِذاب.

كان ذلك عام ١٩٥٨. فعانت الأسرةُ في غُربتها ما عانت... الحرّ شديد لا يُطاق، والبيوت، آنئذٍ، من طين... ولا وجود لمكيّفات أو أيِّ نوع من وسائل الراحة... حتى الماء كان عزيزاً، ينقله إليهم السّقّاؤون المعروفون هناك باسم «المعارة»...

بقيت الأسرة سنة كاملة تعاني من هذه الظروف الشديدة المرهقة... لم يجرؤ أحد على الإعتراض. فزوجُه تعرف أنّها ظروف

(١) الإملاق: الإفتقار.

المعيشة، فما عليها هي وأولادها إلّا التحمُّل بانتظار الفَرَج!.

لكنَّ «عباسًا» لا يسكت على ضَيْم، وإنْ صَدَر عن والده غيرَ قاصدٍ أو مُريد. فقال له، وكان يومها له من العمر ستُّ سنوات:

ـ أتيت بنا إلى الكويت لتحرقنا بالحَرّ؟!.

لقد كانت ثورةً مُبكّرة ولو على والد عزيز!.

وذات يوم، كان الصغير «عبّاس» يلعب في ساحة عامّة، مع أخوَيه «حسن» و«حسين»، وهما أكبر منه سنًّا. فتهجَّمَ عليهم خمسة أولاد كويتيّون، بسبب التنافس على الألعاب وأماكن اللعب... ولعلّ ثَمَّ[1] سبباً آخر يعود إلى اللّهجة واللّكنة... فدافَع «عبّاس» عن أخويه وقد حُوصر بخمسة، وقلّما أتى محصورٌ بخير... فضَرَبَ أحدَ الصبية بقبضته فجرح جبينه... فحُمِلوا سريعًا إلى الشرطة. ولمّا عنَّفهم الضابط تصدَّى له «عبّاس» قائلًا:

ـ أنا الذي ضربتُ الصبيّ لأنّهم اعتدوا علينا، ونحن ندافع عن أنفسنا.

فكتمَ الضابطُ إعجابه بجرأة هذا الصغير، ولكنَّ دم المضروب ماثلٌ أمامه ويفرض عليه الأخذ بالقِصاص. فأراد ضرب الثلاثة بالعصا... لكنّ «عبّاساً» رفض أن يُضرَب أخواه، إذ لا ذنب لهما في

---

(١) ثَمَّ: هناك.

ما حصل. فتقدّمَ من الضابط باسطاً كَفَّيْه وقال:

ـ إضرِبْني أنا، فأنا الذي ضربت الولد، لكنَّ أخويَّ بريئان.

عندها لم يتمالك الرجل أن أبدى إعجابه بجرأة هذا الصغير، وأقلعَ عن العقوبة!.

يعود السيّد «علي الموسوي» إلى لبنان عام ١٩٥٩ ليبني منزلاً في محلّة الأوزاعي في الضاحية الجنوبية الغربية لمدينة بيروت. إلاّ أنّه لم يلبث فيه طويلاً، إذ انتقل بأسرته إلى منطقة الشيّاح حيث سكَنَ وفتح محلّ سمانة.

ويُرسَل «عبّاس» إلى المدرسة فيُحرز نجاحًا مرموقًا في دراسته الإبتدائية ممّا جعله محطَّ أنظار أساتذته ومربيّه ورفاقه. ويتابع دراسته المتوسِّطة بتفوّق خصوصاً في مادّة الرياضيّات التي أبدع فيها، ممَّا حدا بمدير المدرسة أن يهتف معجباً مفتخراً بهذا الطالب النجيب: «ليت عندي عبّاسَين!. إذًا لكانت مدرستي في العُلا».

كَرُمت سجايا[1] الفتى وطابت نفسه فأَوْرَقَ عودُه مصداقاً لحكمة أمير البيان عليّ عليه السلام: «مَن لان عودُه كثُرت أغصانُه»، فتحلّق حوله رفاقٌ محبّون حمدوا له دماثة الخُلُق وسُمُوّ الشمائل... كان دائماً يسأل عن أحوالهم وظروف أهاليهم...

---

(١) السجايا: الأخلاق.

وذات يوم، عاد إلى المنزل متأخِّراً، فسلّم على عَجَل، ثمّ حمل سجَّادةً واستأذن والدته عائداً إلى حيث كان. فسألته متعجِّبة:

ـ إلى أين، وقد عُدْتَ لِتوّكَ متأخّراً؟. ولمن تحملُ هذه السجادة؟.

فأجابها وقد بلغ البابَ:

ـ لقد زرت رفيقي في منزله فوجدته فقيرًا جدًّا، وليس عندهم سجَّادة تقيهم من شدّة البرد... فلم أُطِق صبرًا!...

لم يكن «عبّاس» يُطيق الظلم أو يحتمل رؤية المظلومين. وكانت القضيَّة الفلسطينية وما زالت، مثالاً صارخاً على الظلم وهدر حياة الناس وحقوقهم... فقد اقتُلع شعبٌ بكامله من أرضه، وزُرِع بدلاً منه، فلولُ الشتات اليهودي في العالم. فلولٌ كانت تعيش عَلَقًا[1] على دماء الشعوب، تمتصُّ خيرها، وتسعى لشرّها... حتى لفظَتها تلك الشعوب كما يَلفُظ البحر على الشواطىء مُنتفخَ الجِيَفِ ليطهّرَ نفسه من رِجْسِها ونتانتها... وقامت بريطانيا العظمى صاحبة «الماغنا كارتا»[2] أو «العهد الأعظم»، بمؤازرة فرنسا صاحبة (الحرية ـ الإخاء ـ المساواة)، ومن ورائهما الولايات المتّحدة الأميركية، بتعهّد تلك الجِيَفِ الصهيونية فزرعتها في أرض فلسطين الطيّبة على حساب برتقال حيفا ويافا وكفر قاسم... وهكذا فإنَّ من لا يملك يعطي من

(١) علق: ديدان مشهورة بامتصاص الدّم.

(٢) الماغنا كارتا: وثيقة دستورية تقيّدُ سلطة المِلك وتضمنُ حقوقَ الشعب.

لا يستحقّ، ويحرم صاحب الحقّ... ويتشرّد الشعب الفلسطيني في أرضه وفي الأراضي العربية المجاورة، حاملاً معه جراحه الدامية بعد مذابح دير ياسين وسواها... ويتواطأ العالم ضِدَّه!.

كان الفتى «عبّاس» يقرأ هذه المعاني في عيون أطفال فلسطين، وفي تجاعيد الجباه النازحة...فأدمن قراءة جريدة الثورة الفلسطينية، وقرَّر أن يلتحق بالعمل الفدائي، وأن يشترك في دورة عسكرية لحركة «فتح» في مخيَّم «الهامة» في سوريا. وبما أنه لم يكن قد تجاوز، يومها، ربيعه الخامس عشر، فلم يُسمح له بالعبور. لكنّه صلب عنيد، فتوجّه إلى «الهامة» عبر الشّعاب والهضاب والممرّات الجبلية الوعرة والخطرة، سَيراً على قدميه!. وشارك في الدورة العسكرية. اشتعلَ عليه قلب أمّه وأبيه، وقد غاب عن المنزل أيامًا... وما إن عرفَت والدتُه أين هو، بعد جهود مُضنية من التحرِّي والإستقصاء، حتى قصدته مع أخيها في معسكر «الهامة».

فلمّا واجهته بعاطفتها اللّاهفة، «عبس» في وجهها لئلا يضعف أمام دموعها، قائلاً لها عبارة واحدة: «أريد أن أقاتل إسرائيل».

فحاولت بشتّى الوسائل أن تُقنعه بالعودة معها إلى الديار، بدون جدوى...

وكان قد أصيب خلال عمليّات التدريب على الحبال، إذ سقط

من عَلٍ وكُسِرَت رجلُه.

عندئذٍ لجأت إلى ضابط عراقي وطبيب سوداني لمساعدتها على إقناعه بالعودة. فأقنعاه قائلَيْن:

ـ تستطيع أن تعود إلى بيتك مؤقّتًا للإستشفاء والنقاهة، على أن تعود لاحقاً وقد رُدَّت إليك العافية. أمّا مكانك فمحفوظ لدينا، فلا تقلق.

كان يومها، قد تبقَّى معه خمس وثلاثون ليرة لبنانية، وكانت يومئذٍ ذات شأن... فوزَّعها على رفاقه ثمّ ودَّعهم على أمل لقاء قريب.

العودة إلى الينابيع

لم يُشفَ الفتى «عباس» من إصابته سريعًا، فكان خلال فترة نقاهته، مُستلقياً أمام فِناء الدار، مواظباً على مطالعة جريدة الثورة. فتأخذه الحماسةُ كلَّ مأْخذ، ولكنّه طريح الفراش، قيد المعالجة... فَلْتَهْدأْ ثائرتُه إلى حين... وَلْيستثمِرْ فترات تأمّله الطويلة باحثاً عن جذور الظلم وأصول الشرّ... فكان له في التاريخ نِشْدَةٌ[1] وضالّة... نهجان متقابلان متتضادّان: نهجٌ إيمانيٌّ إلهي يمثّله نبيُّ الرحمة محمد بن عبد الله ﷺ، ويرقى نسبُه الشريف إلى هاشم بن عبد مَناف. ونهج ماديّ إلحاديّ يُمثّله أبو سفيان منحدراً، في الجاهلية، إلى أميّة بن عبد شمس...

ويحملُ رايةَ الإيمان، بعد النبيّ ﷺ، آلُ بيته المطهَّرون وصَحْبُه المنتجبون... ويرفع عقيرةَ[2] الظلم والشرّ والإستبداد عُلوجُ بني أميّة، وقد عادوا إلى الجاهلية خِفافًا، ولعلّهم لم يبرَحوها مَقامًا!.

وكانت المواجهة التاريخية بين الإمام الحسين عليه السلام، وبين

---

(١) نِشْدَةٌ: مطلب.

(٢) عقيرة: صوت.

يزيد بن معاوية، حفيد «هند» في كربلاء، تختصر تاريخ الصراع الإنساني بين الخير والحقّ والإيمان ممثَّلَةً بولاية أهل البيت عليهم السلام، وبين الشرّ والباطل والجاهلية ممثلَةً بكلّ آباء جهل وآباء لَهَب من مستلبي السلطة والحكم وقاهري الشعوب، عبر التاريخ، وصولاً إلى أرباب الأنظمة العربية الراهنة... الراهنةِ نفسَها وشعوبها للغرب، والسائرة في ركاب إسرائيل مبارِكةً جرائمها الوحشية... وذلك حفاظًا على عروشها وزَيْتها[1] فحسب!. أمّا جماجمُ الأبرياء فقد جعلت الأنظمةُ منها لتنورها حطباً... وما دَرَتْ أنَّ عروشها قد خُرِقَتْ بسَفُّود[2]، وها هي تتقلَّب فوق الزيت والحطب!.

تراءت هذه الحقائق ناصعةً لعيني الفتى «عبّاس»، وعاد من رحلته الفكريّة والروحيَّة مُزَوّداً بخير الزاد، التقوى وموالاة أهل البيت عليهم السلام، فاتّصل ببعض لجان المساجد في الشيّاح والغبيري وأقام حوارات ونقاشات معهم. ولعلَّ تلك المناظرات ساهمت في كشف تلك الحقائق الناصعة... فقرَّرَ أن يعود من جديد إلى الجذور، دارساً للعلوم الدينية، متفقّهاً ومتبحِّرًا في الشريعة والثقافة العامّة.

وكان أن ندهَتْه عباءة السيّد موسى الصدر (أعاده الله بخير)، فأعلن لوالده عن نيّته في الإنتماء إلى معهد الدراسات الإسلامية في

(١) الزيت،هنا: النّفط.
(٢) السَفّود: الحديدة التي يُشوى عليها اللحم.

«صور»، فلم يَلْقَ من الوالد الطيّب إلّا كلَّ تشجيع ومؤازرة... فيمّما جنوبًا...

في «صور» لجأ السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) إلى واحة في صحراء هذه الأمَّة، فتفيّأ ظلال نخلة باسقة حضنَتْه بصدرها الموسوي، مع كوكبة من طلّاب العلم منهم الشيخ أسد الله الحرشي والشاعر علي فرحات... وكان من أساتذته الشيخ حبيب قصير.

كان ذلك عام ١٩٦٩، وإذ لحظ السيّد موسى (أعاده الله بخير) في تلميذه تفوّقاً دراسيّاً ونَجابة واعِدة، ألبسه العِمامة سريعاً، ونصحه بمتابعة دراسته الإسلامية المعمّقة في النجف الأشرف.

بين البدر والشمس!

حمل السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) إلى السيّد المُلْهَم محمد باقر الصدر، رسالة من ابن عمه السيّد موسى (أعاده الله بخير) يوصيه فيها خيراً بالسيد الفتى. وكان السيّد محمّد باقر يشتعل علماً ومعرفةً. فاتصل به السيّد عبّاس الذي كان يبحث عن مثاله فوجده في السيّد الصدر، وأصبح من تلاميذه ومُريديه وصَحْبه الخُلَّص المتأثرين بتوجُّهه العلمي والعملي. وسرعان ما أضحى تلميذَه المميَّز حتى غدا صلة الوصل بينه وبين كلّ الطلّاب اللبنانيّين في حوزة النجف.

كان النظام الصدَّامي، في العراق، يرقب تلك الحركة العلمية واليقظة الدينية بكثير من القلق، فأرسل عيونه(١) تجوس خلال الديار المقدَّسة، وتمكَّن بدهائه من زرع بعض جواسيسه تحت عمائم مزيَّفة، في صفوف طلبة العلم!.

وقد عانى السيّد باقر الصدر ما عانى مع تلاميذه وإخوانه، من ملاحقةٍ ودَهْم وتحقيق وتعذيب... ثمّ سجنٍ وتشريد!. فجنحوا نحو السرّيَّة في التجمُّع وطلب العلم والإستنارة بسيّد المعرفة والتنوير

(١) عيونه: جواسيسه.

آنئذٍ. وكان شأنهم في التقيّة شأن أجدادهم في موالاة أهل البيت عليهم السلام تحت أسنَّةِ الأمويّين وحراب العباسيّين... وها هم الصدّاميُّون فُلولُ العباسيّين لا مِراء[1]... فهل أتَوْا بجديد؟!.

في هذه الأجواء السياسية والأمنية الخطيرة يتقدّم السيّد عباس (رضوان الله عليه) بخطى ثابتة في دراسته، وجَنان[2] لا يعرف التردُّد والخوف... ويتابع دراسته العُليا في «بحث الخارج» في كنف أستاذه. ثمّ تتّسع الحلقة المتقدّمة لتضُمَّ حوالي عشرة طلّاب نابهين، منهم الشيخ عفيف النابلسي، والشيخ أسد الله الحرشي، والشيخ راغب حرب قدس سره، والسيد نجيب خلف، والشيخ ابراهيم حبيب قصير... وكان ينضمُّ إليهم، حيناً بعد حين، السيّد عبّاس أبو علي الموسوي. كانوا يجتمعون في منتهى السريّة لينهلوا من ماءٍ عذبٍ فُرات وسلسبيلٍ لاينضب.

في أيّام الصيف القائظة، والحوزةُ في تعطيل، كان السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) يعود إلى لبنان فيستقرّ في بلدته «النبي شيت عليه السلام» ليقوم بواجب التبليغ، فالأرض الطيّبة خصبة ولكنَّها عطشى، وكذلك الناسُ الطيّبون عِطاش. فكان لهم السيّدُ بعباءته الشريفة، سَحابة خير وبَرَكة، تُظلّل هاجرتهم[3] وتروي ظمأهم، ثمّ

(١) لا مراء: لا شكّ في ذلك.
(٢) جَنان: قلْب.
(٣) الهاجرة: شدَّة الحرّ عند مُنتصف النهار.

تودّعهم في آخر الصيف على ميعاد.

أَحبّ السيّد باقرُ الصدر ﷺ تلميذَه السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) ووَثِقَ به ثقةً غالية، فَقَرَّ بِهِ عيناً وفتح له شَغافَ[1] القلب. وقد بلغ في حبّه وثقته أن أحبّ تزويجه بأخته السيّدة بنت الهدى (رضوان الله عليها)، ليجمع نوراً على نور!.

وتطيب نفسُ الفتى بهذه الغالية، ويكادُ يهتِفُ أنْ «نعم»!. لكنّ هاتفًا في داخله يستمهلُه، يَهيبُ به أَنِ «استئنّ»..[2] فإنَّ لوالديك عليك حقًّا.. وطال ما خفضْتَ لهما جناح الذلّ من الرحمة والبِرّ، فعلامَ العَجَل؟!.

لذا، قرَّر استشارة والديه.

وتأتي السيّدة الوالدة إلى النجف، وترى العروس، فتَطيب بها نفسًا، ونِعْمَ النسب!. وإذ تُجاذبُها الحديثَ فنِعمَ كمالُ العقل والأدب!.

وتعود بالبشرى إلى لبنان، ولولا التُّقى لَحَضَّرَتِ الصبايا للزغاريد!.

غيرَ أنّ للسيد الوالد رأيًا آخر.. ليس انتقاصًا من كرامة النسب،

(١) شغاف القلب: غلافه، وهو له كالحجاب.
(٢) اسْتَئنّ: تمهَّلْ.

معاذ الله!. لكنّه خشي أن يُقصِّر هو وأسرته في حقّ السيّدة بنت الهدى، وهي مَنْ هي في كمال النفس وشرف المَحْتِد(١) فلا تلقى بين ظَهْرَانَيْهِم(٢) ما تستحقّ من تكريم وتبجيل..

وينصاع الابن البارُّ لرغبة والده، مُؤْثِرًا الطاعة والرضوخ على التنعّم والفوز بالنسب الكريم، ومتحمّلاً ـ بين يدي أستاذه وحبيبه ـ داعيةَ الحرَج!. يتفهّم السيّد الصدر ﷺ هذا الموقف، ويتقبّله برحابة صدر. ولم تتأثّر العَلاقة الودّية بين السيّدين، بل تعمّقت آصرتُها(٣) واستوثقت من عُراها على لُحْمَة(٤).

في ذلك الصيف عاد السيّد عبّاس (رضوان الله عليهِ)،كعادته في كلّ صيف، ليزور أهله في «النبي شيث»، ويقوم بواجب التبليغ في كامل منطقة الهرمل على رحابتها.

قالت له أخته «هناء»، ذات مساء، وكانت يومئذ ما تزال صبيَّةً في منزل ذويها:

ـ ما رأيك بسهام؟

فأجابها سائلاً:

(١) المَحْتد: الأصل
(٢) ظَهْرانَيهم: في وسطهم.
(٣) الآصرة: ما يُعطفك على فلان من قرابة ومودة.
(٤) لحمة: تعبير كناية عن توثيق العلاقة بينهما.

ـ مَنْ سهام؟!

ـ سهام الموسوي ابنة عمّك..

فردّ عليها متجاهلًا تلميحاتها:

ـ ما بها؟.

ـ إنّها الآن صبيّة، وحلوة ذكيّة.. وهي بالإضافة إلى هذه الصفات، فتاة مؤمنة ملتزمة وصاحبة فكر نيِّر.. وأنا أراها صالحةً لك. فما رأيك؟.

نظر السيّد إلى أخته مبتسمًا وقال:

ـ أَنظُر في ما قلتِ، وأستخيرُ الله.

لم يرْفض مبدئيًا فكرة الزواج، ومجرّد الاستخارة يعني موافقة مبدئية منه، فطرقَتِ الحديدَ على إحماء قائلةً:

ـ ما رأيك لو نسهر عندهم الليلة، فتراها وتراك، وتُكوِّن رأياً أَبْيَنَ، ثمّ يكون ما يأمر به الله بعد الاستخارة؟.

اقتنع السيّد باقتراح أخته وسلامة منطقها في ما عرضت له من رأي. وكانت الزيارة.. أخذت هناء بيد سهام وتوجّهتا نحو المطبخ.. نظر إليها السيّد بحياء وخَفَر[1]. فأعجبته، فأخبر أخته بذلك.

---

(١) الخَفَر: شدَّة الحياء.

لكنّه اشترط عليها أن تسأل الفتاة أوّلاً وتحظى بموافقتها. فلمّا فعلَت واستوثقت من رضاها أخبر عمّه بطِلْبَتِه.

سُرَّ العمّ أيّما سرور إذ هو معجب بالسيّد عبّاس، يحبّه ويفتخر به، وطال ما تمنّى أن يكون صهره. فكانت الخِطْبةُ وكان الزّواج.

وبما أنَّ العروس صغيرة وعليها أن تعيش فترة من حياتها مع زوجها في النجف، فقد اتُّفق على أن تسافر معهما «هناء» علّها تُساهم في إضفاء الهناءة على حياتهما الزوجيّة.

لم يكتفِ السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) في النجف، بدراسة برنامج الحوزة على أهميّته، ولا اكتفى «ببحث الخارج»، وهو كناية عن دراسة عُليا، بل راح ينهل من مَعين[1] مختلف العلوم الدينية السماوية والوضعية الدنيوية.. فكان العلم لديه كماء البحر، كلّما شرب منه ازداد إليه عطشُه!.

لقد كانت الحقيقة مبتغاه ونِشْدَتَه الضالّة، فسعى إليها بجدّية مطلقة، إيمانًا منه بأنّ العِلمَ كفرسٍ شَموس[2] أو ناقةٍ صَدود، لا يعتليها إلّا فارسُها.. ذلك هو شرف العلم، إذا أعطيتَه كلَّك أعطاك بعضَه، وإذا أعطيتَه بعضَك لم يُعطك شيئًا!.

فكانت ثقافةٌ موسوعيّة في صفاء الرؤية الفكرية وعمق الرؤية

(١) المَعين: الماء الجاري.
(٢) الشَّموس: الصَّدود.

الكونية. وكان التألُّقُ دارسًا ومدرِّسًا.

في خضمّ تكوينه الفكري وإعداده نفسَه للمَهمّات الكُبَر، لم يُهمل السيّد حَرَمه، إذ وجد فيها بزرة صالحة، فراح يتعهّدها علميّاً ويُعدّها لنهضة نِسَوِيَّةٍ مقبلة. فكان، كلّ يوم، يُخصّصُ لها ولأخته هناء ساعةً من وقته يَؤمُّهما في محرابه العلميّ.

لم تكن الحالة الماديّة ميسورة مع السيّد، في النجف، إذ كان يعيش وأُسرتَه على الكَفاف. غير أنّ ذلك لم يكن عائقًا أو حائلًا دون امتياح(١) المعرفة، بل كان يَحْفِزُهم للمزيد.. وآية ذلك أنّ السيّدة زوجته اضطرّت، ذات يوم، إلى بيع خاتم زواجها من أجل أن تشتري كتابًا!.

ونسوقُ آياتٍ أُخَر..

في أحد أيّام رمضان المباركة لم يكن في منزل السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) طعام الإفطار، وكان في حوزة السيّدة زوجه دينارٌ واحد لا غير، فقالت للسيّد:

ـ اشترِ لنا بهذا فَطورًا.

ذهب السيّد إلى السوق، وقبل أن يشتري شيئًا لبيته رأى طالبَ

(١) امتياح: اغتراف الماء من البئر.

علم فسأله عن أحواله، فعرف أنّه واقع في خَصاصةٍ[1] وضيق، فوهبه الدينار ثمّ قفل عائدًا حُرَّ اليدين.. فلمّا سألته زوجُه وأخته:

ـ ماذا أحضرتَ لنا يا سيّد؟.

أجابهما:

ـ رأيت في السوق من هو أَحْوَجُ منكما إلى المال، فسلكَ الدينارُ سبيلَه إلى جيبه. عندما عصف الجوع بالصائمتَين، وقد صَدَعَ المؤذّن بالأذان، رأف السيّد بهما، وراح يُخَفّفُ عنهما بالتأسّي بزهد أهل البيت عليهم السلام، ومواساة الفقراء المُعْدِمين..

وإذ يُطْرَقُ الباب، فيظهر رجل يحمل طعامًا وخُضارًا، فيستأذن قائلًا:

ـ هذا من مالكم يا سيّد.

وبعد دقائق يحضُر رجل آخر ومعه أطباقٌ من الأطعمة والفواكه.. عندئذٍ قال لهما السيّد:

ـ أرأيتما؟!. إنَّ مَن ينظر بعين الله إلى المساكين، ويبذل ما عنده للفقراء، لا يتخلّى الله عنه أبدًا.

ثمّ وزّع الخضار وبعض الأطعمة على الجيران.

---

(١) خَصاصة: فقر.

وصل إلى النجف طالب جديد تبدو على محيّاه سِماتُ النباهة، ويَشِعُّ من عينيه بريق الذكاء. رحّب به السيّد عبّاس (رضوان الله عليه)، وعرّفه إلى السيّد باقر الصدر ﷺ الذي تفرّس فيه مليًّا، وتحدّث إليه فسبر غَوْرَه[1]، ثمّ قال للسيد عباس:

ـ انتبْه لهذا الطالب بصورة خاصّة، واصرِفْ عليه جهدك البالغ، فبإذن الله سيكون له شأن عظيم، وفائدة جليلة للطائفة والأُمَّة.

فأحبَّ السيّد عبّاس ذلك الطالبَ الفتى ودرّسه وعمّمه، ثمّ جعله يده اليمنى واصطفاهُ خليلًا.. إنه سماحة السيّد حسن نصر الله (حفظه المولى)!..

في تلك الأيّام كان الإمام الخميني ﷺ منفيًّا في العراق، فاتّصل به السيّد محمد باقر الصدر ﷺ والسيد عبّاس الموسوي (رضوان الله عليه) بسرّية تامّة، وتحدّث الإمام بالثورة على الظلم والاستبداد أينما كانا، وضرورة التغيير الثوري.. وكما تأثّر السيّد عبّاس بشخصيّة الصدر ونبوغه الفكريّ وأحسّ بأنّ الصلاة خلفه دَفْقٌ روحي، تأثّر كذلك بمبدئيّة الإمام الخميني ﷺ وفكره الإسلامي الثوري.. فكان السيّد عبّاس بحقّ، ذلك الكوكبَ الواعدَ الذي اطمأنَّ إلى مداره بين البَدْرِ المنير والشمس المتوهّجة!.

(١) سَبَرَ غَوْرَه: اكتشف أعماقه.

زوجٌ بهيج!

اشتدّت غُلْواء[1] المخابرات الصدّاميّة، وراحت تلاحق علماء النجف أساتذة وطلّابًا، واعتقلت الكثيرين منهم، فأخضعتهم لتعذيب وحشي حتى استشهد بعضهم وأُخْرِج البعض الآخر بعد معاناة..

وكان السيّد عباس (رضوان الله عليه) صلةَ الوصل بين السيّد محمد باقر الصدر ﵀ وبين السيّد موسى الصدر (أعاده الله بخير) يتمُّ عبره التنسيق بين السيّدين خلال كلّ صيف.

وذات يوم كان السيّد عبّاس خارج منزله في النجف، فأتاه تحذير من بعض الأصدقاء بأنَّ المخابرات العراقية سألت عنه مرّتين. فهي إذًا تلاحقه. ثمّ أتته نصيحة من السيّد الصدر بأن لا يعود إلى منزله، وأنّ عليه أن يغادر فورًا وبسرّية بالغة إلى لبنان، على أن تلحق به زوجه في ما بعد.

وبعد هدوء ظاهريّ للعاصفة قرّر السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) أن يعود إلى النجف لإتمام دراسته والتظلُّل بدوحة أستاذه السيّد باقر الصدر ﵀ الذي كان يعطّر الدروس بوعيه السياسي والفكري

(١) الغُلْواء: المبالغة والغُلُوّ.

والثقافي، فهو كالبحر يغوص فيه على الدُّرّ كلُّ غوّاصٍ ماهر. ومَن أمهر من السيّد عبّاس في سَبْر الأعماق والاحتفاء بالدرر؟!

ويأتيه تحذير من أستاذه بأن يصرف نظرًا عن الذهاب إلى النجف لأنّ المخابرات الصدّاميّة ما انفكّت ـ يومئذ ـ تطلبه وتعتبره صاعقَ القنبلة الثورية!

كان السيّد دون العشرينِ من سِنيه، فراح يستثمر العلوم التي حصّلها في تثقيف الناس وتبليغ الرسالة الإسلامية السَّمحة محارباً عادات الثأر والعصبية العشائرية التي زرعها الجهل والتخلُّف، وتعهّدها الاستعمار «برعايته»، واستغلّها النظام اللبناني على بيدر الفساد لإبقاء هذا الشعب الطيّب في بؤرة التخلّف والجهل.

في هذا الدرب الشائك، درب التوعية والتنوير عانى السيّد الأمرّين؛ فكم من عقليّة جاهليّة اصطدم بها! وكم نمرود تمرّد عليه!. وكم تصدّى له أمثالُ أبي جهلٍ وأبي لهب!. وهو صُلب أبدًا لا يلين.. صخرة هاشمية لا تتطَامَنُ[1] إلّا للمؤمنين والمستضعفين..

استمرَّ على هذه الحالة حتى الخامسة والعشرين من عمره الشريف حين قرّر أن يُنشئ حوزة دينية في بعلبك. أليست هي مدينةَ الشمس؟. فكيف يجوز أن تغيب الشمس عن آفاقها، حيث لا علماءَ

(١) لا تتطامن: لا تنخفض.

دين، ولا التزامَ دينيًّا، إلّا لدى مَنْ رحِمَ ربّي؟!.

راح يتّصل بالمرجعيّات الدينية القائمة، فنال مباركة السيّد موسى الصدر (أعاده الله بخير) الذي قال له: «شرِّك الله معك في هذا المشروع المبارك تنجحْ». ثمّ أعطاه مبلغًا من المال كبداية، ووعده بالمزيد. كما حاز تأييد الشيخ محمد مهدي شمس الدين ﷺ ونال منه دعمًا.. وكذلك الشأن مع السيّد محمد حسين فضل الله ﷺ الذي تعهّد له بدفع رواتب المعلّمين، ولم ينكِث بعهده. وكان قبلاً قد نال مباركة السيّد محمد باقر الصدر ﷺ عندما أخبره بنيّته في إقامة الحوزة لاستقبال طّلاب العلم الذين شرّدتهم السلطات العراقية الجائرة، بعد التنكيل بهم، فيساعدهم على إكمال دراستهم، ويستنجد بهم ـ من ثَمَّ ـ في مهمة التبليغ والتنوير في مختلِف مناطق البقاع وسواها.

ثمّ عمد السيّد إلى الاتصال بالعائلات البقاعيّة وغيرها مشجّعًا إيّاهم على إرسال أبنائهم لتعلّم الفقه والشريعة، مستشهدًا بكلام الإمام جعفر الصادق عليه السلام «ليت السياطَ على رؤوس أصحابي حتى يتفقّهوا في الدين!».

لم تكن مهمّة السيّد سهلة، إذ كان الناس ـ وما زال أكثرهم حتى الآن ـ يعتبرون أنّ من يفشل في مدرسته يتوجّه إلى سوق العمل، أو إلى الحوزة الدينية. أمّا الناجحون الباهرون من الطّلاب فيسلكون

سبيلَهم إلى الجامعات الراقية حيث التخصُّصات المرموقة كالطبّ والهندسة والكومبيوتر والمحاماة وسواها، وإن كان كثير من هؤلاء لا يجدون لهم مجالاً في سوق العمل!.

إنَّ هذه النظرة الاستعلائية وما تنطوي عليه من الإعجاب بما لدى الآخرين وبكلّ ما هو شائع «على الموضة»، تُسمَّى، في علم النفس الإجتماعي «prestige» أو حتى «snobisme».

لكنّ تلك العقليّة «الدوغمائيّة»[1] الموروثة لم تَفُتَّ في عضد السيّد بل ظلّ يكافح ويُبدع في المحاجّة والإقناع مستفيداً من ثقافته العامّة التي حصّلها في مختلف مناحي الفكر الديني والدنيوي، داعياً الناس إلى انتهاج سيرة أهل البيت المطهّرين؛ فمدرسة الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام ظلّت في المدينة المنوَّرة عشرات السنين تعلّم جميع المسلمين بل أئمة المسلمين من شيعةٍ وسُنَّة، مختلِفَ العلوم والمعارف السماوية منها والوضعيّة، حتى إنّ تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام كانوا بالآلاف، وقد برع كثيرون منهم في شتّى العلوم، خصوصاً جابر بن حيّان رائد الكيمياء في عصره، وهو الذي قال فيه الدكتور إسحق عظيموف عالم الكيمياء:

«...على أن الكيميائي الذي كان له اليد الطولى في نشأة علم الكيمياء هو جابر (بن حيان) الذي عاش في القرن الثامن.. وتُنسب

(١) الدوغمائية: تتشبّث بأفكارها بلا برهان (متحجِّرة).

إلى جابر كتب ووسائل عديدة ويلوح أنّ جابر كان كيميائياً دقيقاً للغاية، فقد سجّل طريقة صنع عدد من الموادّ الجديدة... »[١].

ولم يغب عن بال السيّد عباس (رضوان الله عليه) أن يذكّر بنابغة القرن العشرين السيّد محمد باقر الصدرؒ وكتبه القيّمة الذائعة الصيت، التي تُدرَّسُ في الجامعات، مثل «فلسفتنا» و«اقتصادنا»، وسواهما، وهو لم يدخل جامعةً قطّ!.

فينجح السيّد عبّاس في التحدّي الكبير، ويتقاطر طلّاب علم الدين من كلّ حدبٍ وصوب مُنتمين إلى حوزة الإمام المهديؑ التي أنشأها في بعلبك، قرب مسجد الإمام عليؑ، ليتمّ التبرُّك بالمبدأ والمنتهى[٢] في وقت معًا!.

كان ذلك في شهر شباط من عام ١٩٧٧، قبل الثورة الإسلامية المباركة في إيران بسنتين. وقد حرص السيّد على أن يأتي من كلّ قرية شابّ ليتفقّه في الدين، حتى إذا عاد إلى قريته بعد سنوات، عالماً، نوّر قريته ومنطقته جميعًا.

وقد كان السيّد هو المدرِّسَ الأوّلَ في الحوزة، فبَهَر طلّابه بدماثة خُلُقه ورقّة مشاعره، وغزارة علومه، وحُسْن بيانه شارحًا ومُثقِّفًا..

---

(١) «البحث عن العناصر»: تأليف إسحق عظيموف ـ ترجمة إسماعيل حقي ـ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٨.
(٢) المبدأ: هو الإمام الأوّل عليؑ، والمنتهى: هو الإمام الثاني عشر المهديؑ.

لقد كان بأخلاقه وعلومه قارورةَ عطر.. ومدرسة!.

أمّا دروس الحوزة فكانت: اللّمعة الدمشقية، المقدّمات، بحث الخارج، الأصول، المنطق، البلاغة، النحو، منهاج الصالحين.. إضافة إلى كتابَيْ «اقتصادنا» و«فلسفتنا» وغيرهما من كتب العلم والمعرفة..

كان طلاب السيّد هاجس تفكيره، فهم الخميرة لخُبز الزمن، وهم مَعْقِد الآمال وأدلّة القافلة في صحراء هذه الأمّة، وهم مصابيحُ الهداية في مناطق الظلام والإهمال وضعف الالتزام، فكان فَتْحُ الحوزة فتحًا عظيمًا. وقد رعى السيّد سنابل حقله وتعهّدها ساقيًا ومُغذّيًا ومهذّبًا لتكون غلّتَه الزاكية في بيدر الحصاد..

وها هم تلاميذه وأحبّاؤه في كلّ مكان هُداة للحق ورُعاة لِلمسيرة. ولعلّ خير شاهد على ذلك سماحة السيّد حسن نصر الله (حفظه المولى)، عالمًا ومجاهدًا، بل سيّد العلماء والمجاهدين.. فهو مع أستاذه وأخيه وحبيبه السيّد عبّاس الموسوي (رضوان الله عليه) بمثابة الإسلام الحيّ المتحرّك يقدّم نفسه لخدمة هذه الأمّة على مذبح الشهادة والتضحية.

ولكنّ المجتمع الإنساني لا ينهض على ساق واحدة، وإلّا فنهضته عرجاء، بل بتْراء.. والطائر لا يحلّق بجناح واحد.. فما بالُ

هذه التي تهزُّ السريرَ بيُمناها، وتهزُّ العالَمَ بيسراها، لا تُثقَّفُ بالعلوم الدينية، ولا تُزَوَّدُ بخير الزاد حتى تتيامنَ في حركتها وتُرضعَ أولادها عِلمًا وتُقى؟!.

لقد سمع السيّد كلام الإمام الخميني‏قدس‌سره عن المرأة مشبِّهًا إيّاها بالقرآن فكلاهما أُوكِلَ إليه تربيةُ الأُمَّة، القرآنُ للهداية والأمُّ للتربية.

وقرأ السيّد كتابًا للدكتور بهشتي حول المرأة، وآخرَ لآية الله مطهّري وهما يعتبران ـ كما الإمام الخميني‏قدس‌سره ـ أنَّ المرأة كالقرآن.

فعقدَ السيدُ العزمَ على إنشاء حوزة دينية للمرأة، وجعل مديرتَها ومدرّستَها الأولى زوجتَه السيّدة أم ياسر (رضوان الله عليها)، فهو قد أحسنَ إعدادها، في النجف، للاضطلاع بهذا الدور.. لم يكن الأمر خاضعًا للاتفاق[1] أو الصدفة.. فكلّ شيء بتخطيط وحُسن تقدير.

وهكذا، بفضل الله تعالى ورعاية سماحة السيّد عباس‏قدس‌سره، تطوّرت حوزة الإمام الحجّة‏عجل‌الله‌فرجه، فأنتجت حوزة الزهراء عليها‌السلام، في المبنى ذاته حيث سَكَنُ السيد.. فكان مَثَلُها كمَثَلِ النبتةِ الفتيّةِ تُنبَتُ ثمّ تَهيج، ثمّ تُخرِجُ من كلّ زوجٍ بهيج!.

(١) الإتفاق: هنا بمعنى الصدفة.

نهج كربلاء

بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، كان خليقاً بالسيد عبّاس أن يشتعل حماسةً وتأييداً ودعوةً لها ولقائدها التاريخيّ الملهَم الإمام الخميني‏ قدس سره فكانت زياراتُه لطهران، ولقاءاتُه بذلك الإمام العظيم، خصوصاً إثر الإجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢.

في تلك الزيارات التي استمرّت وتيرتُها[1] متصاعدة، خلال العدوانَيْن، الإسرائيلي على لبنان، والعراقي على إيران، بمباركة أميركا وعرب الجاهلية والصهيونية الدولية، كان السيّد عبّاس يرى من الإمام الخميني عجبًا!.

فقد جاء، يومًا، قادة الثورة من وزراء ونوّاب، إلى الإمام يبكون، وقالوا له تخنقهم عَبَراتُهم:

ـ لقد استشهد الدكتور بهشتي!.

فأجابهم الإمام بهدوء المؤمن الصابر المحتسب:

ـ إنَّ الدكتور بهشتي قد رحل، ولكنَّ الله باقٍ..

(١) الوتيرة: الأرض الطريقة (الممهَّدة السالكة).

وضرب الإمام مثالًا رائعًا في التواضع ونُكران الذات، مقدِّراً تضحيات المجاهدين، ورافعاً لواء الشهداء مُعْتَبرًا إيّاهم هُم القادة وهُم السادة عندما قال: «إنّ قائدنا هو ذلك الفتى الأهوازيّ ابن الإثني عشرَ ربيعاً، الذي فجّر نفسه بدبّابة الجيش العراقيِّ البعثيِّ الكافر!».

وشاهَدَ السيدُ بأمِّ العين صلابةَ الإمام وبطولته وإيمانَه العميق بربّه، مساوياً نفسه ببقيّة الناس، عندما قال له المسؤولون عن الأمن:

ـ إنّ مخاطر الطيران العراقيِّ والصواريخ وحرب المدن تُهدِّد بيتك وحياتك بالخطر. ونحن هيّأنا الملاجئ ليكون وضعُكَ آمناً.

فرفض الخروج من بيته قائلاً:

ـ إذا كان الصاروخ سيهدم بيوت الناس، فأنا واحد من الناس، وإذا كنت آمناً، فالذين معي يجب أن يكونوا آمنين!.

وسمع السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) قول الصحافية البريطانية «أوريانا فالنجي» عن الإمام الخميني ﷺ: «إنَّ هذا الرجل ترتعد له كهوفُ الأرض!».

فقابل السيّد إمامه طالباً مباركته في مقاتلة إسرائيل.. ولكنْ كيف السبيل إلى هزيمتها، وجحافلُها وطائراتها تُغطّي أرض لبنان وسماءه خلال الاجتياح، وأساطيلُ الأطلسي من بوارج وحاملات طائرات تملأ البحر المتوسّط وتحاصر الساحل اللبناني؟!.

فقال الإمام: «**قاتلوهم بنهج كربلائي عميق تنتصروا عليهم بإذن الله.. ولكنْ لا تيأسوا، مهما سقط منكم من شهداء.. فاصبروا وصابروا، ولا تنتظروا النصر قبل عشرين عامًا!**».

فتلقّف السيّد هذا القول المبدئي «قاتلوا الإسرائيليين بنهج كربلائي»، وعاد إلى لبنان حاملاً لإمامه حبّاً وإعجاباً وطاعةً بلا حدود!.

وعندما سُئل عن سِرِّ هذه الطاعة غير المحدودة، قال مقولته الشهيرة: «**أنا تشيّعتُ عندما عرفت الإمام الخميني ﷺ!**».

أخلاق ومزايا..

كان السيّد عباس (رضوان الله عليه) أسمَر اللون بهيّ الطلعة، مُمتلئ الجسم مَوْفُور القوّة. أمّا قامته فكانت أقرب إلى الطول. تعلو محيّاه بسمةٌ لم تستطع إخفاء ذلك المضمون الحزين في وجهه. عيناه مكحّلتان بكحل ربّاني، إذ سأله، مرّةً، الشيخ يوسف دعموش عمّا إذا كان يعمل بسُنَّة رسول الله ﷺ، فيكحّل عينيه أثناء الليل، فقال: لا أفعل.

كان ذا طلّة مهيبة ونظرة في عينيه آسرة. يقصده مرافقه لأمر، فما إن يلتقيه وينظر في عينيه حتى ينسى ما جاء من أجله، ويهرب منه الكلام. وعندما يُحدِّثه السيّد يذوب المرافق في المعاني الإيمانية لكلامه.

كثيرون وقفوا أمام نظرته حائرين.. أيُّ سِرٍّ فيها؟ وأيُّ سِرٍّ فيه؟. فقال بعضهم إنَّ في نظرته الإيمانَ والقوّةَ والعزّة.. وقال آخرون إنَّ فيها الصفاءَ والذكاءَ ونداءَ الروح.. وأكّدوا جميعاً أنّه ينظر ويرى بعين الله، مصداقاً للحديث النبويِّ الشريف: «**إتّقوا فِراسة المؤمن لأنه يرى بعين الله**»!.. عينانِ صافيتانِ يترقرقُ فيهما الحياءُ، ويفيضُ

منهما حُبٌّ آسِر.. ودمعةٌ غريبةٌ غيرُ مرئيَّةٍ تفرِضُ عليك الإحساسَ الشديدَ بوجودها، حتى لتَكادَ تُحِسُّ بِدِفْئِها.. وقد تتساءلُ: ما مَبْعَثُ هذه الدمعةِ الغريبة؟ أَهِي استجابةٌ فطريَّةٌ لِأنينِ المظلومين في هذه الحياةِ، وما أكثرَهم؟ أمْ تأَسٍّ لِنَشيجِ المرضَى الذينَ يعانون بصمتٍ وكبرياء، من فداحةِ آلامِهم وأوجاعهم، وقد عزَّ لَهُم بين النَّاسِ مُجير؟ أَمْ إحساسٌ مع الأَسْرَى في غياهبِ السجونِ وهُم يُعَانُونَ التعذيبَ والوحشيَّةَ وفراق الوطنِ والأحبَّة؟ أَمْ تُراها دمعة الحزنِ على أرواح الشهداءِ الذين روَوْا بدمائهم الطاهرة أرضَنا الطيِّبةَ فأنبتتْ حريَّةً وكرامةً وإباء؟

لعلَّها دمعةٌ زينبيَّةٌ سكنتْ مقلتَيْهِ صغيراً عندما كانت السيِّدةُ والدتُه تقرأُ مجالسَ الحسين عليه السلام، وهي تحملُه طفلاً رضيعاً بين يدَيْها، فتقرأُ وتبكي وتنزِلُ دموعُها غزيرةً على وجه الصغير، فتمتلىءُ عيناهُ بدموعِ أُمِّهِ، ويرتضِعُ مزيجاً غريباً من اللِّبانِ والدموعِ والآهات..

كان يتطيّبُ ببعض العطور المستحبّة، فإذا جالسَ الناسَ فاحت رائحةُ المسك من أردانه[١]، وطأطأ رأسه تواضعًا واستحياءً..

كما أنه كان، في طبعه، هادئًا وقوراً صامتًا.. إذ ليس الصوت، دائمًا، دليلَ الامتلاء، بل كثيراً ما يكون جعجعةً[٢] بلا طِحْن[٣]!.

(١) مُفردها «رُدْن»، وهو أصل الكُمّ

(٢) جعجعة: صوت الطاحونة.

(٣) طِحْن: دقيق (طحين)، وفي المثَل: أَسْمَعُ جَعجعةً ولا أرى طِحْنًا.

أمّا إذا ذَرَّ[1] قرنُ الشرّ، أو لَحِقَ المستضعفين نَكَال[2]، فتأخذه غضبة هاشمية لا تهدأ حتى تأخذ للمظلوم بحقِّه..

لم يكن السيّد يغضب إلّا لله ونصرة عباده المظلومين.. فإذا «عبَس» فإنّ خَطْبًا[3] جليلًا قد حدث!.

كثيرًا ما كان، في بعلبك، يُغافل المرافقين فيذهب وحيدًا سيرًا على قدميه للقيام بزيارة، أو التعزية بشهيد أو فقيد.. وعلى الطريق يتحلّق الناس حوله يريدون التسليم عليه وتقبيله... فإذا أخلَوا سبيله تابع سيره خفيفَ الوطء، ينقلُ خطواتِه رفيقةً بالأرض كأنّه يهمسُ بقدميه هَمْسًا!

وعندما يتنبّه المرافقون لخطورة الأمر يُهْرَعون إليه، وقد استخفّهم القلق والجزع، فيلومونه على ما بدر منه من تفريط بأمنه وسلامته. فيجيبهم بطمأنينة وهدوء: كفى بالأجّل حارسًا!.

أمّا إذا رأى على الطريق امرأة، أو جالس امرأةً تُبْلِغُهُ شَكاتَها[4]، أو تتظلّم إليه من زيد من الناس وسوءِ فعله، فلا ينظر إليها جِهارًا، بل يَنْكُسُ رأسَه إلى الأرض ويُغْضِي طَرْفَهُ عِفّةً وحياءً.. مَثَلُه في ذلك مَثَلُ جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قال فيه الفرزدق:

---

(١) ذَرَّ: طَلَعَ وظَهَر.
(٢) نَكَال: تنكيل، ظُلم، مصيبة..
(٣) الخطب الجليل: الأمر الخطير.
(٤) شكاتها: شكواها ومَظْلَمَتها.

يُغْضِي حياءً ويُغْضَى من مَهابتِهِ   فما يُكلَّمُ إلاّ حين يبتسمُ

وإذْ خَشَعَ قلب السيّد لله فقد شفّ وجدانه ورَقَّتْ عاطفته لجميع الناس. بل كان عطوفًا على جميع مخلوقات الله. وآية ذلك ما يلي:

كان، في النّجف، مع بعض المشايخ والعلماء، يتدارسون على سطح المبنى، ذات مساء، فالحرارة لا تُطاق نهارًا... مرّت فأرة أمامهم، فهُرِعَ الشيوخ لقتلها. لكنّ السيّد إعترض طريقهم، وأفسح لها المجال للهروب. فقالوا له:

ـ يا سيّد، إنّها فأرة!.

فأجابهم:

ـ إنّها مخلوق من مخلوقات الله، ولها روح...

ومُواءُ قطّة، في منتصف الليل، جعلهُ يستفيق ويفتح لها الباب لتَخلُد إلى النوم آمنة دافئة..

عندما خرج ذات يوم، سالمًا مع بعض مرافقيه من حادث مروّع على طريق بعلبك ـ النّبي شيت عليه السلام، طلب إلى السيّد جعفر علي مرتضى أن يذبح له خروفًا فداءً للحادث، ففعل.. فلمّا رآه السيّد يذبح الخروف تألّم وقال له:

ـ ما أقسى قلبك!. كيف تجرؤ على فعل كهذا؟!.

كان خليل محمد الموسوي سائرًا مع السيّد، بِلَيْلٍ، فصادف كلبًا على الطريق. حمل خليل حجرًا ورماه به خوفًا، فسأله السيّد مُعترضًا:

ـ لمَ فعلت هذا؟

فأجابه خليل، وقد أحرجه السؤال وأربكتهُ تلك النظرة الغاضبة:

ـ إنّه كلب.. فهل ضربتُ إنسانًا؟!.

عندئذ قال له السيّد عبّاس (رضوان الله عليه):

ـ أرأيت السيّد المسيح عليه السلام عندما قال أصحابه، وقد مرّوا بجيفة كلب: «ما أنتنَ ريحَه!» فقال لهم: «ما أشدَّ بياضَ أسنانِه!»

حاول أحد المجاهدين تشويه جثّة أحد المقاتلين من الأعداء.. ولعلّ هذا المجاهدَ عانى من ذلك العدوِّ قبل التمكّن منه. ومع ذلك رفض السيّد عبّاس قدس سره منه هذه الحُجَّة، ومنعه بشدّة من ذلك التصرّف مهدّدًا إيّاه بالفصل من المقاومة. ثمّ ذكَّرَه بالحديث الشريف القائل: «**إيّاكم والمُثْلَةَ ولو بالكلبِ العَقورا**».

ثمّ نظر السيّد إلى ذلك القتيل فقال متأثّرًا: «رحمةً بهؤلاء القتلى الّذين باتوا لا حولَ لهم ولا قوّة»!.

لقد كان خُلُقَه القرآنُ تشبُّهًا بأخلاق سيّد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله.

ومن آيات هذه الأخلاق التواضع.. ألم يرَ شابًّا يصلّي في المسجد فيقفْ خلفه مؤتمًّا به، مصلّيًا وراءه جماعةً؟

ألم يَزِدْه تواضُعُه هذا رفعةً عند الله وبين الناس، مصداقًا للحديث الشريف: «**تواضَعوا يرفعْكُم الله**»؟!.

كان ذات يوم، ذاهبًا في مهمّة على طريق بعلبك، فانفجرت عجلة السيّارة... فنزل ليساعد المرافقين على تغيير تلك العجلة.. وإذ يمرّ موكب الشّيخ صبحي الطفيلي ـ وكان آنئذٍ أمينًا عامًّا لحزب الله ـ فعرض على السيّد أن يُقِلَّهُ بسيّارته، على أن يلحق به مرافقوه. لكنّ السيّد رفض، شاكرًا هذا العرض. فحاول مرافقوه أن يقنعوه بالذهاب مع الشّيخ صبحي حفاظًا على سلامته، فقال لهم: «ذهبتُ معكم وأعود معكم».

وعلى الطريق لطّخت سيّارةُ السيّد أحدَ الأطفال فبلّلت ثيابه بماء إحدى الحُفَر... فتابع السائق سيره لأنّ الوقت داهمهم، وثمّة اجتماع مهّم بانتظار السيّد.

لكنّ السيّد أوقفه وأمَرهُ بالعودة إلى ذلك الطفل، فنزل من السيّارة واعتذر إليه ثمّ قبّله، وأمر أحدَ المرافقين بأن يأخذ الطفل إلى السوق فيشتري له ثيابًا جديدة ويوصله إلى داره بأمان حتّى لا تضربه أمّه إذا رأت ثيابه موحلة!.

تلك كانت أخلاقه، وهي غيضٌ من فيض.. ومع ذلك كان يكره أن يُمدح، ويردّد كلام أمير المؤمنين عليه السلام: **«ذَبْحُ الرجُل أن تمدحَه في وجهه»**.

ألهذه الأخلاق وتلك الصفات تمنّى السيّد الشهيد محمد باقر الحكيم قدس سره ان يكون السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) صهرَه، إذ قال ذلك للشّيخ عدنان الربيعي، وقد عرض على السيّد إحدى بناته ليتزوّجها؟!.

فبالله، كيف يمكننا أن نُصَنّفَ تلك المزايا والأخلاق، سوى أنّها أخلاق ومزايا فوق الوصف؟!.

مسجد الإمام علي عليه السلام

لقد حفلت حياة السيّد عبّاس رحمه الله، بعد عودته من النجف بالأحداث والمشاكل والهموم، فمن بداية عام ١٩٧٨ حتّى عام ١٩٩٢، كانت الأحداث متسارعة: من الحرب الأهلّية اللبنانيّة التّي استمرّت فترة طويلة وحصدت عشرات آلاف الأبرياء فضلًا عن المتقاتلين والشهداء، إلى الإجتياح الإسرائيلي عام ١٩٧٨ لجنوب لبنان، إلى الثّورة الإسلاميّة المباركة في إيران، إلى تغييب السيّد موسى الصّدر (أعاده الله بخير) عام ١٩٧٩، إلى استشهاد السيّد محمد باقر الصّدر رحمه الله... ينضاف إلى ذلك اضطلاع السيّد حتّى الغرق بمشاكل الناس وهمومهم، وهموم الحوزة ومسؤوليّاتها... وهموم الإرشاد والتبليغ إلى أوان الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ بكلّ تفاعلاته وتداعياته...

أمام كلّ ذلك لم يعرف السيّد عبّاس طعمًا للراحة أو النوم الهانىء، أو الهناءة في حياته... المهامُّ كثيرة والمسؤوليّات جِسام، فمِن أين يبدأ؟.

كان فعلًا قد بدأ من الحوزة، في بعلبكّ، فكانت خيرَ منطلَق...

ونظر إلى بلدته الحبيبة النبي شيت عليه السلام، فوجد أهلها منقسمين، فَثَمَّ خصومة عائلية بين عائلتين كريمتين هما آل شكر وآل الموسوي. وكان آل شكر قد بنوا مسجدًا في البلدة، هو مسجد الإمام الحسين عليه السلام. يصلّون فيه جماعة. كما بنى آل الموسوي في حِماهم مسجد الإمام الحسن عليه السلام، وصلّوا فيه جماعة، فانقسم الناس بين المسجدين.

وكانت للسيد عبّاس زيارات متكرّرة لوجهاء العائلتين الكبيرتين مذكّرًا إيّاهم بذلك الحديث الشريف لرسول المحبّة محمد صلى الله عليه وآله: **«إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام»**.

ثمّ قام بخطوة جريئة، فصلّى وراء السيّد علي سليم شكر في صلاة الجماعة!. وفي بعض أيّام عاشوراء كان السيّد عبّاس يلقي الخطبة، والسيد علي يقرأ المجلس. فتعرّض السيّد عبّاس لضغوطات عائلية جمّة... لكنّه تحمّل صابرًا محتسبًا، حتى تمّ الوئام والتحابُّ على حساب راحته، وأحيانًا كرامته!.

فلانت له القلوب، وقد كانت أقسى من جلاميد الصخور... ونزل الجميع لمساعيه الحميدة، راضين بحكمه... فراح سماحته يؤمُّ المصلّين كلّ يوم جمعة، مرّة في مسجد الحسين عليه السلام، ومرّة في مسجد الحسن عليه السلام. وإذا بالمصلّين يتقاطرون إلى محرابه من العائلتين ـ وقد صلُح أمرهما ـ ومن أهل البلدة جميعًا.

ثُمّ نظر حول سكنه في بعلبك، حيث تقع الحوزتان، فرأى مبنىً متواضعًا قد جعله بعض المتنفّذين مستودعًا للبطاطا والخضار.. هذا المبنى كان ذات يوم، مسجدًا!. وقد بناه المرحوم الشيخ حبيب آل إبراهيم. فاستلمه السيد، وأمر بتنظيفه وترميمه، وأعاده من جديد، مسجداً تقرُّ له العين ويطيب فيه ذكر الله، حيث يجتمع المؤمنون للصلاة والعبادة...

ثُمّ ارتقى السيّد منبره خطيبًا، فسَحرَ الناسَ بغزارة علمه وحُسن بيانه حتى امتلأت قاعة المسجد، وافترش المصلّون باحته الخارجية، وسدّوا الطرق المؤدّية إليه.

وكان المصلّون يسبقون السيّد ليتسنّى لهم فرصة التسليم عليه، وحفظ مكان لهم في رحاب المسجد... ويقول قائلهم: «حينما يعتلي السيّد عبّاس ﷺ المنبر تجري قلوبنا خلْفَ خُطاه، وتتعلّق بشفتيه، فإذا انطلق كلامه ملأ قلوبنا وعقولنا. فكنّا نُنصت ونتمنّى ألّا ينتهي ذلك الحديث».

ولمسجد الأمير كرامات وآيات... إذ سقط رجل عن مئذنته وهي بارتفاع خمسة وثلاثين متراً، إضافةً إلى عمق ستة أمتار تحت الأرض، وقعْرُ الحرم مشبّكٌ بالحديد... ولم يتأذّ ذلك الرجل!. والقصّة مشهورة ومعروفة لكلّ أهل المنطقة.

وهناك آياتٌ أُخَر توحي بعظَمة هذا المسجد وكراماتِ مَنْ سُمِّيَ باسمه الشريف، وفضائل مجدّد بنائه وخطيب محرابه... على أننا سنسوق بعض تلك الآيات والكرامات، في مظانّها لاحقاً، بإذن الله.

الحرس الثوري...

لعلّ السيّد عباس(رضوان الله عليه) ـ من خلال مطالعاته السابقة في جريدة الثورة الفلسطينية، ومطالعاتٍ سواها ـ عرف أنّ المناضل الأرجنتيني «تشي غيفارا» لم تنجح ثورته في «بوليفيا» ضدّ الإمبريالية الأميركية، بالرغم من مساهماته الجُلَّى في إنجاح الثورة الكوبية مع رفيق نضاله الرئيس «فيدل كاسترو».

وقد أُشيعَ ـ أيامها ـ أنّ فشل ثورته في قلب أميركا اللّاتينية عائد إلى أنّه لم يكن يقاتل على أرضه وبين شعبه. وقد استطاعت المخابرات الأميركية أن تعزله في أحد الكهوف الجبليّة، وتعزل ثورته عن القاعدة الشعبية في بوليفيا.

فاستنتج المحلّلون السياسيّون والعسكريّون الإستراتيجيّون ـ يومها ـ وكذلك الثوّار بأنّ أيّة ثورة ـ لكي تنتصر ـ لا بدّ لها من تأمين شرطين أساسيّين، كما جاء في «فلسفة الثورة» للرئيس الراحل «جمال عبد الناصر».

هذان الشرطان هما: «تقدُّميّتُها» و«شعبيّتُها».

أمّا السيّد عبّاس فكان على يقين من أنّ الإيمان بالله والنهج

الكربلائي للثورة يغطّيان ذَيْنِكَ الشرطَيْن ويتجاوزاهما بأشواط...

لذا راح السيّد يعمل على تحويل مجتمعه إلى مجتمع مقاوم. فكم كان ذلك الأمرُ عسيرًا!. وكم آذته تلك العبارة التهكُّميّة الساخرة التي كان يتفوَّه بها حتى بعض كبار المشايخ... في ردّهم على آراء السيّد حول ضرورة محاربة إسرائيل وإمكانية الإنتصار عليها: «يعني العين بدّا تقاوم المخراز؟ لكْ لكْ هالحاكْي!».

ولكن للسيّد عزمًا لا يلين... لم تُثنه تلك المواقف المتخاذلة، وقد عرف أنّ مجازر العدّو قد استطاعت أن تزرع الرعب في قلوب الناس واليأس في إرادتهم، ومن ثَمّ الإنهزام في نفوسهم.

فوصل إلى المعادلة المفقودة: إنّ العدوّ الإسرائيلي يريد أن يُحوّل ما حوله إلى جحيم ليستطيع البقاء والنَّماء... فَلْنُذِقْهُ بعضَ بأسِنا... وَلْنُحوّلْ حياته إلى جحيم!.

تلك هي المعادلة التي عاش وناضل من أجلها، وأذاعها بين الناس، مُذكّرًا بموقف الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: «**هيهات منّا الذلّة!**»، ومُبيّنًا وملبّيًا دعوة الإمام الخميني قدس سره: «قاتلوهم بنهج كربلائي عميق».

وإذا بالسيد يستقبل الحرس الثوري، في بيته في بعلبك، مُفرِدًا لهم جناحًا في مبنى الحوزة، ثمّ أمّن لهم مقرّاً في بلدته النبي

شيت عليه السلام.

وتقوم الموانع ضدّه من جديد، إذ هدّده بعض وجهاء البلدة بأنّهم سيطردون الحرس الثوري من بلدتهم، ولو بالقوّة، وذلك خوفًا على أولادهم من أن تعتقلهم الكتائب، جماعة أمين الجميّل يومئذ.

فما كان من السيّد إلاّ أن جمع وجهاء القوم وقال لهم بحزم هاشميّ: «إذا أصاب مكروه أحدًا من الإخوة الإيرانيّين فسأُدمّرُ الضيعة فوق رؤوسكم»!.

ويشارك السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) بنفسه في أوّل دورة تدريبيّة يجريها الحرس الثوري في جنتا، أواخر العام ١٩٨٢، لإعداد أفواج المقاتلين. وكان هو وطلّاب الحوزة وبعض أساتذتها هُم الرعيل الأوّل من المتدرّبين.

وتحمّل السيّد مشاقَّ التدريب والزحف والمسيرات الليلية لمسافات طويلة في الوعر، وفي رجله تلك الإصابة القديمة التي ما انفكّت تؤلمه عند التعب والإرهاق...

وكلّ ذلك هيّن أمام طابور الإزعاج الليلي الذي كان يتعرّض له المتدرّبون، والذي كان جزءًا أساسيًّا من التدريب، إذ كان يُفيق الواحد منهم على ركْلٍ شديد بالحذاء، أو رصاصة تنطلق فوق رأسه وتكاد أن تصيبه، مع صرخة مدوّية توحي له بأن العدوَّ الإسرائيلي

فوق رأسه!.

يقول بعض الأخوة الذين شاركوا في تلك الدورة: «كنّا نخجل من أنفسنا أمام صلابة السيّد وهمّته العالية. ويحاولُ مسؤول التدريب أن يخفّف عن السيّد كلّ هذه المُزعِجات أثناء التدريب نظرًا لمقامه ومكانته. ولكنّ السيّد كان يرفض أن يعامَل معاملة خاصّة، بل كان يشدُّ من أزر رفاقه وتلاميذه ليتحمّلوا مشاقَّ التدريب القاسي قائلاً لهم:

ـ إنّ من يُعِدُّ نفسه لمقاتلة إسرائيل لا بُدّ من أن يكون مقاتلًا صلبًا. فقتال هذا العدوّ، هذا الكيان المتوحّش ليس نزهةً أو مُزاحًا... وقد يُستشهد المجاهد منّا أو يُجرح أو يؤسر، وربّما عانى في أسره أشدّ ألوان التعذيب والتنكيل للإنتقام وسحب الإعترافات... لذا يجب أن نكون على أتمّ الإستعداد لمواجهة هذه المواقف المحتمَلة. وهنا تكمن فضيلة هذه التدريبات القاسية!.

استمرّت هذه الدورة العسكرية خمسةً وأربعين يومًا، وتبعتها دورات أُخَر، ثُمّ انطلقت عمليّات المقاومة ضدّ الإحتلال الإسرائيلي والعملاء اللّحدييّن، مُسَطّرة أروع البطولات، وكاتبةً بالدم الطاهر الزكيّ أحرف الحريّة والعزّة والكرامة!.

وظلّ السيّد عباس(رض)، خلال السنوات العشر (من عام ١٩٨٢

إلى عام ١٩٩٢) حركةً لا تهدأ... يُحمّل جسده ما لا يطيق من الأعباء والمسؤوليّات، مسخّراً إيّاه لمهامّ الروح... لم يكن دولاب سيّارته يهدأ حتى تتحرّك قدماه... فسيّارته سريره متى غلبه النعاس وهدّه الإرهاق. وسيارته مطعمُه... وماذا يأكل؟ قليلًا من اللّبنة والزيتون يغذّيان هذه الطاقة المثاليّة!.

ملاك في صورة إنسان!

أ ـ مع أهله وأسرته:

خفض السيّد لوالديه جناح الذلّ من الرحمة، وقال لهما قولًا كريما، ودعا لهما في كلّ صلاة: ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا...

كلّما رأى والده، ولو على الطريق، كان ينكبُّ على يده مقبّلًا وطالبًا لرضاه، على مرأى من الناس.

وكان بارًّا بوالدته، فاهتمَّ بها وسعى لخدمتها. وخلال مرضها حملها إلى ألمانيا لمعالجتها من مرض عضال ألمّ بها... وعندما استقرّ وضعها في المستشفى (بيروت) كان يزورها يومياً، بعد انتهاء تدريسه في الحوزة في بعلبك... حتى إنّ الشيخ علي فرحات يقول:

«كان السيّد عبّاس يبرُّ والدته فيزورها يوميًّا في المستشفى... هذا البِرّ جعلني أبرُّ والدتي في مرضها طيلة خمس سنوات.... كما تعلّمتُ من سماحته آداب السلوك»...

أمّا إخوة السيّد فلم يروا منه إلّا الرفق والحُسنَى، وكان يعمل على مساعدتهم وخدمتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وبعد وفاة

السيّدة الوالدة رحمها الله احتضن أهله جميعاً حتى قال والده السيّد علي الموسوي:

«كان يرعاني ويشملني بعاطفته كأنّني أنا ابنه وهو أبي».

وكان رفيقًا بأخواته خاصّةً، يزورهنّ دائمًا، ويستضيف المتزوّجة منهنّ في بيته مع أولادها، أيامًا وأسابيع... فما وجدْنَ منه إلّا عطفًا وحنانًا، وكنّ يردّدن أنّه عوّضهنّ من الفقد واليتم...

وما لَنا لا نسوق على ما نقول مثالًا؟ وها هي أخته هدى تشرح تلك العلاقة الطيّبة بشيء من التفصيل:

«بعد وفاة والدتي رحمها الله تحمّل السيّد عبّاس مسؤوليّة رعايتي أنا وأختي، وحاول أن يعوّضنا هو وزوجته الفاضلة. وبما أنني كنت المدلّلة بين إخوتي جميعًا، فقد صبّ السيّد كلّ حنانه عليّ وأعطاني العاطفة الكبيرة. وهو لم ينسَ كلام والدتي حين كانت تقول إنّها متعلّقة بي كثيرًا، وتشعر إمّا بموتها أو بموتي أنا. كم كان تأثّره شديدًا بهذه الكلمات!.

«فراح يرعاني ويدلّلني على طريقته، وجسّد حقيقةً دور الأب والأمّ والأخت والصديقة والمعلّم المربّي. وبالرغم من إمكانيّاته المادية الصعبة جدًّا فلم يكن ليحرمنا، أنا وأختي، أيَّ شيء. لقد كان يهتمّ بنا أكثر من أولاده. كان من الممكن أن يحرم أولاده من شيء ما...

أمّا نحن فلم يكن (رضوان الله عليه) يُشعرنا بأيّ حرمان، حتى وإن استدان فوق راتبه، ليؤمّن لنا طلباتنا.

«كان كلّما دخل المنزل، يأخذنا بأحضانه ويضمّنا بعطف وحنان. فقد تميّزت شخصيّة سماحته بحُسن التقدير في كيفيّة دخوله المنزل ووجهه يمتلىء بِشْرًا، رغم تعبه الشديد.

«لقد أعطى العائلة حقّها كوالد، رغم أنه كان يغيبُ لفترات طويلة. كلّما دخل المنزل كان يرمي ثقل همومه وأعماله خارج العتبة، ويهتم بكلّ فرد منّا»...

حتى خالته زوجُ أبيه كان بَرًّا بها يزورها ويسأل عن أحوالها ويُنفّذ طلباتها... لكنّه قبل الدخول إلى بيت أبيه كان يقف خارجًا، كأيٍّ شخص غريب، ويطرق الباب ثمّ يقول:

«هل تأذنين لي، يا خالتي، بالدخول؟!».

فإذا سمحت له دخل مطأطئًا رأسه احترامًا لها ولحرمة منزلها!. ألهذا قال بعض جيرانها: إنْ لم تكن هذه الأخلاق هي أخلاق الرسل والأنبياء، فبالله، كيف يمكن لأخلاقهم أن تكون؟!.

أمّا مربّيتهُ السيّدة فاطمة خليل الموسوي، وهي ظِئْرُهُ[1]، فقد أتته يومًا، على كِبَر، وطلبت إليه عملًا سواءٌ في منزله أو في الحوزة،

(١) ظِئرهُ: مُرضِعتهُ صغيرًا.

لتعيش بقيّة أيّامها بكرامة. فنظر السيّد إليها وقد دمعت عيناه، ثمّ قال لها:

«أتريدين أن أنظر إليك تعملين وأبكي؟!. كيف ترضَيْنَ لي بهذا الإحراج المُذِلّ؟!. إبقَيْ في منزلك معزّزة مكرّمة، فأنا مسؤول عنك ما حييت».

ثمّ خصَّص لها من راتبه خَرْجًا شهريًّا يقيها ذلّ السؤال. ولمّا سئلت ذات يوم، عن علاقتها به قالت:

«عباس ولدي، وهو خزّان من العاطفة لا ينضب».

أمّا أهلُ بيته الأقربون، زوجُه وبنوه، فكثيرًا ما كان يقصّر في حقّهم، بَدْءًا من تسلّمه مسؤوليّة الجنوب واضطراره لأنّ يغيب عن منزله أسابيع وربّما أشهرًا... بسبب ملازمته للمجاهدين في المحاور والجبهات كما سنرى في حينه بإذن الله. وعندما كان يعود مفاجئًا أسرته كان لديهم عيد، فيسهر معهم ويأكل معهم ثمّ ينزع عِمامته الشريفة ويلاعب أولاده كأنّه طفلٌ بينهم، فيعوّضهم من الحرمان خيرَ عِوَض.

لكنّه لا يلبث أن يستقبل الناس ويُعالج مشاكلهم.. وإن نام فتكفيه ساعتان أو ثلاث، ثمّ ينهض فجرًا للصلاة وقراءة القرآن وبعض الأدعية... ثمّ يغادر المنزل إلى الجنوب أو الشمال أو الشام.. أو حتّى إلى إيران، وأولاده نائمون ويحلمون بأنّه في الغرفة المجاورة، وأنّهم سيرونه قريبًا.

كان السيّد يعترف بتقصيره تجاه أسرته. ولكنْ ما حيلته، والمهامُّ والمسؤوليّات جِسام، والعُمر قصير، والظروف لا ترحم؟!. لذا كان يقول لزوجته (رضوان الله عليها): «صبّركِ الله، يا أمّ ياسر، على هذه الحياة التي تعيشينها، والظروف القاسية التي وضعتُك فيها».

أمّا هي فكانت تخفّف عنه وتُطَمْئنه بأنّها سعيدة معه، ولها الفخر والإعتزاز بكونها زوجته. وعندما كان يعود من محاور الجنوب ويخلع بذلتَه العسكريّة لتغسلها، كانت تشمّ رائحة عرقه فيها، ورائحة غبار الأرض الطّيبة، فتغيبُ لحظات مغمضةً عينيها ثمّ تقول:

«خيّ... أنا أشمّ فيها رائحة الجنّة!».

عندما مرض ذات يوم، وحُبس في منزله عدّة أيّام طريح الفراش، سُرّ أولاده أيّما سرور، فقط لأنّه بينهم، حتّى إنّ ابنه الصغير حسين قال له بكلّ براءة: «ليتك تمرض دائمًا، يا أبي، حتّى نراك!».

تألّم كثيرًا لهذا القول، وأدرك كم هو مقصّر في حقّ زوجته وأولاده.. وعندما أَبَلَّ من مرضه، صعد إلى سطح المنزل، بلا مرافَقة، مُعرّضًا نفسه للخطر، فجثا على ركبتيه ودخل حَبْوًا إلى خيمة صغيرة كان ولداه كُميل وحسين قد نصباها، وهما يلعبان فيها، فشاركَهما اللعب، ليُدخل السرور إلى قلبيهما.. هكذا كان يُشيع البهجة والحُبور في حياة الأسرة.

ب ـ مع أصدقائه وطلّابه:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ﴾[1]. صدق الله العليّ العظيم.

كان السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) قارئًا للقرآن، حافظًا لآياته، وكثيرًا ما سُمع يُردّد هذه الآية. وبهذا فقد جعل له الرحمن وُدّاً، فأحبّه القاصي والداني، وسَعِدَ به أصدقاؤه وطلابه، إذ كان يصقُل شخصيّة كلّ من يقترب منه. وبهذا يقول تلميذه الشيخ محمد بدوي:

«تعرّفت إلى السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) عام ١٩٨١ في حوزة الإمام المنتظر عليه السلام، في بعلبك، فجذبني إليه. ثمّ تبيّن لي أنّ كلّ شخص عرفه انجذب إليه مثلي، فظنّ أنّه الأقربُ إليه... لله درُّهُ، لقد صقل نفسي وروحي جهاديًّا وعلميًا وروحيًا..».

لم يكن السيّد غُضابيًّا أو كَدِرًا في معاشرته، بل على العكس من ذلك تمامًا، فقد كان دَمِثَ الأخلاق، رقيق المشاعر، ليّن العريكة.. وإذ لانَ عُودُه فقد كَثُرَتْ أغصانه وأورقت.. فتحلّق حوله المحبّون، مصداقًا لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام: **«من لان عوده كثُرت أغصانه»**. وقد كان حَفِيًّا بأصدقائه وإخوانه، يُوادُّهم ويكرمهم.. ونذكر للتمثيل:

---

(١) مريم: الآية ٩٦.

أُهْدِيَ مرّةً، عباءةً ليرتديها بدل عباءته الممزّقة، فأعجبته، وقد كان له بها أشدُّ الحاجة. لكنّه أهداها لطالب علم لا يملك عباءةً!. وكان بهذا يقول لربّه: «سمعًا وطاعة»، إذ قرأ في كتابه العزيز:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1].

يقول تلميذه الشيخ جهاد بلّوق:

«لقد كان السيّد رفيقًا بي، محبًّا، وعطوفًا، وقد عوّضني من مرارة اليتم...».

ويقول تلاميذه عمومًا، وزملاؤه في التدريس وإخوانه في الشورى:

كان لديه العلم ممزوجًا بالحِلم، مصداقًا لقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في أهل البيت عليهم السلام:

«يخبركم حِلمُهم عن علمهم، وظاهِرُهم عن باطنهم، وصَمْتُهُم عن حُسن منطقهم»[2].

وقد كان الإمام عليّ عليه السلام يسمحُ للدُّعابة بلحظة هَمْس، فيستجيبُ لهَمْسِها مرِحاً بغير غلُوّ، حتى قال له بعض الصحابة:

---

(١) آل عمران: الآية ٩٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة «٢٣٩»

لله درُّك، أبا الحسن!. لولا دُعابة فيك.

فكان ردّه عليه السلام:

«المُزاحُ جميل، ولكنْ اجعلْه كالمَلْح في الطعام».

كذلك كان السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) يميلُ إلى الدعابة والمُزاح ضمن حدود اللياقة، ليُشيعَ البهجة والسرور في نفوس صحبه وإخوانه. وإنْ كان، أحيانًا يُبَحْبِحُ في الملح قليلًا، إذا أَلَحَّتْ عليه الدُعابة وتطلَّبها المقام... وللتدليل نسوق ما يلي ـ وإن كنّا على يقين من أنّ ما نذكره لا يعدو كونه وَشَنًا[1] لا يروي ـ.

يقول تلميذه الشيخ يوسف علي سبيتي:

«كنّا نلعب معه في ماء الفرات... أمّا على سطح مبنى الحوزة في بعلبك، فكان لنا وله قصّة مع الثلج: ذات يوم شتوي كان الثلج كثيفاً، وكان السيّد عائداً لتوّه مع المرافقين، والثلج على تلك الحالة مُغرياً باللعب... وما إن نزل من السيّارة حتى رحنا نرشقه مع مرافقيه، بكتل من الثلج... فصعد إلينا، وخلع الجبّة والعِمامة، وراح يردُّ لنا الصاع صاعَيْن... وبعد نصف ساعة من اللّعب قال:

«حسنًا، لقد لعبتم ما فيه الكفاية، والآن تفضَّلوا إلى الدرس».

ذكّرته أخته هناء يومًا، بأنّها كانت السبب في زواجه، وقالت له،

(١) الوَشَنُ: الماء القليل.

لمزيد من التذكير والتأكيد: «لقد أعطيتني يومها مبلغًا من المال».

فقال لها ممازحًا: «صحيح؟ فإذًا هاتي المبلغ لَهونْ!».

في إحدى المراحل حصلت أزمة علاقات دبلوماسية بين سوريا وفرنسا، تطوّرت إلى توقيف وتحقيق متبادلَيْن لبعض الدبلوماسيّين...

وكان السيد، ذات يوم ـ خلال تلك المرحلة ـ ذاهباً مع بعض مرافقيه إلى لقاء عمل... وكان معه أحد الأخوان، وهو أبيض أشقر ذو سَحْنةٍ[1] أجنبيّة. فلمّا وصلت سيّارة السيّد إلى حاجز سوري قال لعنصر الحاجز وقد أشار إلى مرافقه الأشقر اللون:

«هذا فرنسي، إذا كنتم تريدونه فخذوه!». فأُربك الشاب، خصوصًا عندما تقدّم منه العنصر مُوَجِّهًا نحوه سلاحه... أمّا السيّد فراح يضحك حتى بدت نَواجذُه[2]... فعرف السوري أنّها مُزاحةٌ من السيد، لكنّه اندمج في التمثيل زيادةً في إرباك الأخ المرافق... ثمّ سمح، ضاحكًا، للموكب بالمرور...

كان أهل الجنوب يعانون من الإجتياح الإسرائيلي المتكرّر وآثاره المدمّرة على أرواحهم وبيوتهم ومزروعاتهم... فتَلَفَتْ هذه المزروعات وكَسَدَ ما جُنيَ منها وفَسَد. وعاش الجنوبيّون ضائقة

(١) السَّحْنة: الهيئة واللّون.
(٢) النواجذ: الأضراس.

إقتصادية شديدة. فبادرت وزارة الاقتصاد الإيرانية إلى إرسال وفد إقتصادي لشراء الدجاج والبَيْض من المناطق الجنوبية الشيعية، تخفيفًا عن كاهل أولئك الجنوبيّين الصامدين في قراهم ومزارعهم.

كان الوفد مؤلّفًا من معاون وزير الإقتصاد ومرافقه، يقودُهما كدليل ومترجم، الشيخ علي رضا إيماني، وهو من الجنسيّة الإيرانية أيضًا.

وصل الوفد إلى سماحة السيّد عبّاس الموسوي (رضوان الله عليه) فأخبره الشيخ إيماني بمهمّة الوفد. عندئذ ابتسم السيّد وقال للشيخ:

«سأُكلِّمُك بالعربي، وتستطيع أن تترجم كلامي للأخوين الكريمين، إذا وجدْتَ في ذلك مصلحة... لو كان للشيعة بَيْض لما تجرَّأت إسرائيل على احتلال أرضهم!».

فَأُخْرِجَ الشيخ محاولاً كبْتَ مشاعره، ومنَعَ نفسه لحظات من الضحك... لكنّه لم يصبر على هذه المُلْحَةِ من السيد، وآثر أن يكون موضوعيًّا شأنَ كلّ مترجم عَدْل... وما إنْ ترجم للأخوين حرفيًّا كلام السيّد حتى انفجر الإيرانيّون الثلاثة بالضحك.

ج ـ مع جيرانه:

كان السيّد عباس (رضوان الله عليه) يذكر قصّة ذلك اليهودي جار النبيﷺ الذي ما انفكّ يُلقي بقاذورات منزله أمامَ بيت النبيﷺ، والنبيُّ يكظم الغيظ، ويرمي فضلات منزله وفضلات ذلك اليهودي بعيدًا عن الديار... إلى أن مرض اليهودي، يومًا، ولزِمَ دارَه، فلم ير الرسولُﷺ فضلاتِ جاره على بابه، فأرسل بعضَ الصحابة للاطمئنان عن ذلك الجار، لعله مريض يحتاج إلى شيء. ولمّا عرف اليهودي أنّ النبيَّ يسأل عنه ندم على سوء فعله، ثمّ اهتدى بفضل كرم الرسولﷺ وسماحة نفسه.

كان السيّد يذكر هذه القصّة وتدمع عيناه... فكانت هاديَهُ في حسن معاملته لجيرانه حيث سَكَن...

ففي بعلبك اشتاق أولادُه، ذات يوم، لحمًا مشويًّا، فطلب إلى مرافقه أن يشتري شِواءً جاهزًا. فقال له المرافق:

ـ لماذا لا نشتري اللحم، ثمّ نشويه في المنزل؟، فتكون الكمية أكبر، ويبقى الشِّواءُ ساخنًا عند تناوله...

فأجابه السيد:

ـ أتريد أن تنتشر رائحة الشِّواء في كلِّ الحيّ، فيقول الفقراء من الجيران: «إنّ السيّد وأهله يأكلون اللحم المشويّ، ونحن لا نملك مالًا

لنأكله!» معاذ الله!. لا كنتُ ولا كان الشِّواء إذا حصل ذلك.

فردّ عليه المرافق مندهشا:

- ولكنْ يا سيّد، هذه عادةٌ هنا في بعلبك. فكلّ الناس يشوون اللحم يوم الجمعة. إنه تقليد بمثابة العُرف.

عندئذ أجاب السيّد بلهجة حاسمة:

- فلْيفعل الناس ما يحبّون. أمّا أنا فلا أفعل ذلك. فإمّا أن تشتري للأولاد شِواءً جاهزاً، وإمّا أن أمنع هذا الطعام من المنزل!.

وفي بعلبك كانت مياه الشرب تنقطع باستمرار ولفترة طويلة أحيانًا. فركّب مرافقو السيّد خزانًا كبيرًا على سطح المنزل لتوفير الماء في فترة الإنقطاع... فهبّ بعضُ جيرانه من قِصار النظر وضِعاف المروءة، معترضين واتّهموا السيّد بأنه يُخزّن لبيته نصيبَهم من الماء!. فطيّب السيّد خواطرهم وسمح لهم بأن يأخذوا من الماء ما يشاؤون... فمُدّت «النّرابيشُ»[1] إلى الخزّان...

عندما اضطرّ السيّد إلى أن يسكن في بيروت، في مبنى مشترك، هدم الشباب جداراً في المبنى لتأمين حماية للسيد. فغضب السكّان واحتجّوا على ذلك...

فما كان من السيّد البارّ بجيرانه - وإنْ غالى بعضهم في الملام

(١) نرابيش: أنابيب من المطّاط وغيره. أصلها «نرابيج»، جمع «نِبْريج»، فارسيّة.

ووصل إلى حَدِّ التجريح ـ إلاّ أن أمر الشباب بإعادة بناء الجدار كما كان... وإذْ أنجزوا العمل راح يعتذر إلى جيرانه حتى رَضُوا. ثمّ طلب إلى مرافقيه أن يستأذنوا لجنة البناية في هدم هذا الجدار لضرورة أمن السيد. فلمّا قبلت اللجنة، أعاد الشباب هدم الجدار من جديد.

ويذكر السيّد ياسر عبّاس الموسوي الحادثة الآتية:

«تَلاسنَ أحدُ جيراننا مع الحرس، فغضب هذا الجار ورفض أن يصعد مع والدي في المصعد. عرف السيّد أنّ الرجل مُستاء فترك الأمرَ لِسانِحة[1]... وذات يوم، شاهده السيّد فهُرِعَ إليه وقبّله في رأسه ثمّ اعتذر إليه. فما تمالك الرجلُ أن بكى، ثمّ ندم إذ أزعجَ السيدَ ذات يوم!.

د ـ مع عوائل الشهداء:

أراد السيّد كعادته دائمًا ـ أن يزور مواقع المجاهدين في منطقة البقاع الغربي، والعدوُّ الإسرائيلي ـ يومئذ ـ مُتحصّن في تومات نيحا المشرفة مباشرةً على بلدة مشغرة. فاتصل السيّد بأحد الأخوة المجاهدين من أبناء هذه البلدة. فطلب إليه المقاوم أن ينزل في بيته، على أن يقوم بجولاته من هناك. لكنّ السيّد ردّ عليه قائلاً:

(١) السانحة: الفرصة الملائمة.

«لاقِني عند جبّانة البلدة، حتى أزور ـ أولًا ـ ضريح أستاذ المقاومة الشهيد محمد بجيجي، وأستأذنه في زيارة مواقع المجاهدين وبيوتهم في البقاع الغربي»!

تلك كانت علاقة السيّد عبّاس بشهداء المقاومة، فهو يستأذن أرواحهم الشريفة وأضرحتهم الطاهرة قبل أن يزور مناطق جهادهم!.

ولا تنتهي هذه العلاقة الطيّبة بانتهاء حياة المجاهدين بالشهادة، بل لعلّها هناك تتجذّر لتبدأ مرحلةٌ جديدة و«مشوار» طويل مع عوائل هؤلاء الشهداء احترامًا وخدماتٍ وتقديرًا وتقديسًا!... حتى لَيطْمئنّ المجاهد إلى مصير أولاده وأهله، وأنّهم سيكونون ـ في حال استشهاده ـ أفضل حالاً ممّا هم عليه، وهو بين ظَهرانَيْهِم[1]!.

وعندما كان يسقط شهيد للمقاومة كان الجميع يتهيّبون إخبار أهله بهذا النبأ الأليم... وكم كان السيّد يُلاقي عَنَتًا[2] وإحراجًا في هذه المهمّة الصعبة!...

أمّا إذا سقط في عمليّة واحدة، عدد كبير من الشهداء ـ كما حصل في تلّة الحقبان، أو علمان الشومرية، أو علي الطاهر والدّبشة ـ فكان على السيّد أن ينتقل من منزل شهيد إلى منزل آخر... وآخر... حتى يجهد نفسه ومرافقيه، وهو يعزّي أهالي الشهداء ويباركهم

(١) ظَهرانَيهم: في وسَطهم، بينهم.
(٢) ألعَنَتُ: الوقوع في أمرٍ شاقّ.

ويشدُّ أزرهم، ويذكّرهم بمصائب أهل البيت عليهم السلام مؤكّداً لهم أنّ دماء أبنائهم هي ثمن الحريّة والكرامة والنصر بإذن الله.

وقد يكون الشهيد مخالفًا، في حياته، لمواقف أهله السياسيّة، وقد يجهلون إنتماءه إلى حزب الله، وأنه مجاهد على الجبهة... فعند استشهاده تعظُم الحاجة إلى فدائيٍّ لينقل الخبر إلى الأهل... وعندما يفاجأون بهذا النبأ الصاعق يثورون ويلعنون... وقد يصل بعضهم إلى شتم السيّد والمقاومة!.

فينحني السيّد لهم، وينظر إلى الأرض خجلًا منهم، ويقول لمرافقيه الذين يعترضون على الشتائم:

«اتركوهم يفعلوا ما يشاؤون ويقولوا ما يريحهم... هذه الشهادة سوف تجعلُ لمنزلهم مكانةً لا مثيل لها... وسوف يكون مَحَجّةً لكلّ الناس. عندئذٍ سيكون هؤلاء المفجوعون فخورين بمنزلة شهيدهم عند الله، ومنزلتهم بين الناس... وسيكونون من أشدّ الداعمين للمقاومة!».

وهذا ما حصل فعلًا. فقد استطاع السيّد عباس قدس سره أن يحوّل مجتمعه إلى مجتمع مقاوم يعتزُّ بالمقاومة ويحملُ رايتها الصفراء عاليًا!.

لقد كان السيّد يعتبر نفسه أبًا لأبناء الشهداء، وأنه مسؤول عنهم

في كلّ شيء...

ذات يوم زار عائلة أحد شهداء المقاومة، كَدَأْبِه[1] دائما، فلمّا احتضن أولاد الشهيد وقبّلهم مُمرّرًا يده الشريفة على رؤوسهم أحسّوا بأنّ أباهم هو الذي يحتضنهم ويُدَفِّئُهُم بعطفه وحنانه... فراحوا يبكون ورفضوا أن يغادروا حضنه الدافىء.

وزار السيّد والد شهيد في بلدة زلّايا، في البقاع الغربي، فقبّله وقال له:

ـ إنّ الدماء الطاهرة لولدك الشهيد ولكلّ الشهداء الأبرار هي التي منحتنا العزّة، فلها الدور الأكبر في صناعة النصر القادم بإذن الله.

فبكى والد الشهيد وقال للسيد:

ـ هذه أوّل مرّة يزورنا فيها مسؤول!. ونحن لا نعرف إلى أين يذهبُ صوتُنا لولاك!.

كما كان سماحته يحضُّ جميع الإخوة في حزب الله على أن يكونوا رُفقاء بعوائل الشهداء، خادمين لهم. ويقول ذلك على المنابر ليُعمّم ثقافة المقاومة وتقدير تضحيات المجاهدين وأهاليهم، خصوصًا أهالي الشهداء والجرحى والأسرى... ويُردّد عبارة الإمام الخميني قدس سره:

(١) كدأبه: كعادته وشأنه.

«يجب أن يكون هؤلاء العوائل جُلَّ اهتمام الأمّة، لأنهم صنعوا عزّ هذه الأمّة، وهُم عينُها».

أما عبارة السيّد المأثورة ـ في هذا المجال ـ التي كان يكرّرها دائماً فهي:

«شهداؤنا عظماؤنا، وهُمْ كلّ أمجادنا».

ولم يكن هذا القول مجرّد شعار مرفوع، أو كلام لا يستند إلى واقع، بل كان تطبيقًا عمليًا لمبدأ رَكين(1) وعقيدة راسخة. وقد مثَّلْنا على ذلك ببعض الأمثلة، في ما سلف...

ولِسائلٍ أن يسأل: هل كان السيد، مع أهالي المجاهدين والجرحى والأسرى، أقلّ اهتمامًا وتقديرًا، منه مع عوائل الشهداء؟... أم أنّ سماحته كان، كما يؤكّد الكثيرون، رفيقًا بهم، رقيقًا معهم إلى حدّ المذلّة؟!.

فَصْلُ الخِطاب، هنا، لأهالي الجرحى والأسرى... فهذه أمّ مقاوم جريح تقول: «زارنا السيّد عباس (رضوان الله عليه)، يومًا، مُطْمَئِنًّا عن ولدي، فسألته أن يدعوَ له حتى يَشْفيَه الله. فقال لي: وهل أنا من يدعو له؟!. فَمَنْ أنا؟! نحن جميعًا نحتاج إلى دعواته ودعواتك... ليتنا كنّا غبرةً على ثيابه!!».

---

(1) ركين: ثابت.

أمّا مرافقو السيّد وإخوانه فقد رأوا مِنْ مِثْل هذا عجبًا... فهذه ابنةُ مجاهد أسير تأكل في بيته مع أمّها. ولكونها صغيرة تجلس في حضنه قبل أن تغسل يديها وفمها من آثار الطعام. فتقبّله لأنّها تعرف مدى حبّه لها وعاطفته عليها... وتتمادى في اللعب معه، فتمسح يدها بلحيته الشريفة، وهو يبتسم لها... فيغضبُ بعض الحضور، ويهبّون لمنعها من ذلك. ولكنّ السيّد يرفض منهم تدخّلهم، ويسمح لها أن تتصرّف على سَجيَّتها[1]، كأنها تمامًا، في حضن أبيها!.

هـ ـ مع المرافقين:

إذا كانت القيادات السياسيّة والأمنية والعسكرية تتحرّك بمواكب سيّارة، وتحيط نفسها بهالة من الأبّهة والعظَمة، بحجّة الحماية وتتأَمَّرُ على المرافقين والسائقين والحرس ـ وهذا كلّه مشهود لا يحتاج إلى دليل ـ فإنّ السيّد عبّاس كان بطبيعته يرفض المرافَقة. وكثيرًا ما كان يغافل المرافقين ويقوم، منفردًا، بجولات على الناس والأهل... لكنّ الإخوان في «الشورى» كانوا يفرضون عليه المرافقة حفاظًا على حياته وأمنه. فكان يردّ عليهم مرّةً بقوله: «كفى بالله حارسًا!» ومرّةً بقول الإمام عليّ عليه السلام: **«كفى بالأجل حارسًا!»**.

لكنّه، في النهاية، كان ينصاع لرغبة إخوانه ويقبل بالمرافقة على شرائط:

---

(١) سجيّتها: طبيعتها.

أوّلًا: أن تكون بغير أبّهة أو غلوّ.

ثانيًا: ألاّ يُظهِرَ مرافقوه أسلحتهم، خصوصًا من نوافذ السيّارة، أو يطلقوا الرصاص في الهواء لتفريق السَّابلَةِ[1] وإنفاذ[2] السير... وذلك حفاظًا على مشاعر الناس... فلا قيصريّة ولا كِسرويّة[3]... ولكنْ إماميَّة خُمَينيَّة!.

ثالثًا: أن تكون سيّارته عاديّة جدًّا وقديمة الطراز، رخيصةً... وعندما أهداه الشيخ الأختري ـ سفير إيران في دمشق آنئذٍ ـ سيّارة مصفّحة، رفض استلامها، وطلب إعادتها إلى مُهديها شاكرًا لَفْتَته الكريمة. وعندما سئل عن سبب رفضه لها أجاب: «بثمن دولابها يُمكن أن نزوّج أحد الأخوة المجاهدين»!...

وبقيت السيّارة شهرًا تحت منزله بدون أن يستعملها. ثمّ أهداها إلى صديقه الشيخ سعيد شعبان رحمه الله في طرابلس، قائلًا:

«إنّه أحْوَج إليها لأنّ الأخطار تحدق به في طرابلس والشمال اللبناني».

حتى سيّارة المرافقة التابعة له لم يكن بها ضنينًا إذ باعها ليشتري بثمنها جهازًا طبيًّا لمقاوم جريح!.

(١) السَّابلة: أبناء السبيل، المارَّة.
(٢) إنفاذ السير: فتح السير، أو جعْلُه نافذاً.
(٣) كسروية: أي لا فخامة قيصر، ولا أُبهَّة كِسرى.

أمّا مرافقوه فكان رفيقًا بهم، يحبُّهم ويكرمهم ويؤاكلهم من مطبخهم، مطبخ المرَافقة، فلا يُميّزُ نفسه بطعام. وإذا دُعي إلى مائدة (يقول أحد مرافقيه) اشترط أن تكون بلا تكاليف، أي «من حواضر البيت»، ولا يجلس إليها طاعِمًا[1]، قبل أن يدعونا إليها طاعِمين، إذ يقول لمن ينزل عليه ضيفًا: إنّ معي شبابًا، فأدخلوهم.

طوبى لهذا الرجل... في كلِّ خطوة له دَرْس، وفي كلّ كلمة له حِكَم، وفي كلّ مسلك له عِبر...

وهنيئًا لمرافقيه... فهم الفائزون بتلك الدروس، وهم المستفيدون ـ قبل سواهم ـ من تلك الدرر والعبر...

كان، ذات يوم، مارًّا بسيّارته في «عين السكّة» (برج البراجنة)، وهي منطقة مزدحمة بالمارّة والباعة، عادةً. فأطلق سائقُه بوقَ السيارة ليفتح الناسُ له الطريق. فاعترض السيّد على تصرّفه قائلًا:

«ومَنْ أنا حتى يفتح الناسُ ليَ الطريق؟!».

ويقول أحد المرافقين: «اضطرّ السيد، ذات ليلة، إلى أن ينام في جباع، إبّان الإحتلال الإسرائيلي، والمخاطر به مُحْدِقة... كنّا ـ يومها ـ اثني عشر مرافقًا ومجاهدًا. فلم ننم خوفًا على السيد. لكنّه أيضًا لم ينم قلقًا علينا، إذ كان يخرج إلينا في كلّ ساعة من الليل، ليتفقَّدَنا ويسألنا عمّا إذا كنّا نحتاج إلى شيء... فرُحْنا ننظر إلى بعضنا ونتساءل:

(١) طاعمًا: آكلًا.

عجبًا! ما الذي يجري؟! مَنْ يرافق من؟! ومن يحرس من؟!».

هو أُنموذَجٌ من القادة فريد، نسيجُ وَحْدِه!. نورانيّةٌ آسِرة من منارة أهل البيت عليهم السلام... رائدُه الحديث الشريف: «**إنّما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**». لم يترك للشيطان فُسحةَ هَمْس، إذ امتلأ قلبه ووجدانه بحبّ الله وحبّ النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المطهّرين عليهم السلام، وحبّ الخير لعيال الله، وعشق الجهاد والشهادة!.

وذلِكُم غَيْضٌ من فَيْضٍ [1] ممّا يرويه مرافقوه وهُم أعلم الناس بسيرته العطرة بين الناس...

يقول أحدهم: «رافقته، يومًا إلى بيروت، سائقًا. فعقد إجتماعين... فمرضتُ بسبب داء الشقيقة التي تنتابني بين حين وآخر، ولا تتركني إلّا مكدودًا طريح الفراش.

«وعندما أنهى السيّد إجتماعيه رفض العودة إلى بعلبكّ، من دوني، مع أنّ المرافقين كُثُر، والسائقين كثر... بل أرسل بطلب الدواء لي، وداواني بنفسه فارتحت ونمت.

«فلمّا صحَوْتُ، بعد ساعات، وجدته بقربي يصلّي، ويدعو لي بالشفاء!».

ويقول آخر: تعرّضت لحادث سير مروّع، فبقيت عدّة ساعات

(١) الغيض: قلّة الماء، أو أيّ شيء، والفيض: كثرته. أي: هذا قليل من كثير.

في غرفة العمليّات. وعندما أفقت من المخدّر رأيت وجهًا دامع العين ينظر إليّ ويبتسم فعرفت فيه وجه السيد... لم أتمكّن من معانقته ـ لحظتَها ـ فعانقَتْه روحي... بعد أن اطمأنّ عنّي غادرني لبعض الوقت، قالت لي المرضة إنّ السيّد لم يتركني لحظةً واحدة، كأنّي ولَدُه، أو بعضُ أهله... لقد كان أوّل من دخل عليّ، وآخر من خرج من غرفتي. وظلّ، بالرغم من كلّ مشاغله، يطمئنُّ عنّي كلّ يوم، حتى شُفيت!.

و ـ في الأمانة العامّة:

قَدَرُ الرجال الكبار أن يُواجهوا التاريخ الإنسانيَّ، في كلّ شأن من شؤونه، وفي كلّ وجه من وجوهه، فيحتلوا منه السُّدَّةَ[1]، لامِراء! دَيْدَنُهم[2] أنَّ لهم الصّدر، دون العالمين، أو القَبْر.

وكان قدَرُ السيّد عباس ﷺ أن يكون عظيمًا، في أيّ باب من أبواب العظَمة قابلناه...

فهو العالِم المعلّم المربّي، الذي علّم بسلوكه وأخلاقه قبل لسانه... وهو المجاهد الشجاع الذي اتخذ حيدرة عليه السلام مثالًا، فلم يعرف جزعًا ولا فَرَقًا[3]، وما همّه أن يقع على الموت، أو أن يقع الموت

(١) السُّدَّة: باب الدار.
(٢) ديدنهم: دأبهم وعادتهم.
(٣) فَرَقًا: خوفًا.

عليه... وهو المؤمن الزاهد الذي يرى الدنيا بكلّ بهارجها ومغرياتها كَشِسْعِ نَعْل[1]!.

لهذه المحامد كلّها ومحامدَ أُخَر، رأى الإخوة في شورى حزب الله أن يكون السيّد عبّاس ﷺ قائدهم في الأمانة العامّة، وحامل مشعلهم في مسيرة النضال.

لكنّه رمز التواضع، كما عرفوه. فآثر أن يكون غيره في هذا المنصب، قائلاً لهم:

«تكفيني مسؤوليّة الجنوب، فهي مسؤوليّة ضخمة، لا أريد أن أقصّر مع المقاومين على الثغور... حياتي هناك... تكليفي هناك... فلا تحرموني من تنشّق أنفاس المجاهدين، والتطيّب بعطر الشهادة...».

ثمَّ رشّح تلميذَه وصفيَّه وحبيبه السيّد حسن نصر الله (حفظه الله) ليتولّى الأمانة العامّة، ودعَمَه بصدق.

إلاّ أنّ السيّد حسن هو الّذي رفض قائلًا: «معاذ الله، أن أكون الأمين العامّ في وجود أستاذي السيّد عبّاس!».

وحُسم الجدال، فكان السيّد عبّاس أمينًا عامًّا لحزب الله عام ١٩٨٧، بعد ولاية الشيخ صبحي الطفيلي، وهو في الخامسة والثلاثين

(١) كناية عن حقارتها.

من عمره الشريف.

اضطرّ السيّد عبّاس ـ بسبب مسؤوليتّه الجديدة ـ إلى أن يقضي معظم وقته في مبنى الأمانة العامّة، في بيروت، يحضر الإجتماعات، ويجلس إلى الناس لحلّ مشاكلهم وتأمين ما أمكن من طلباتهم، ويحمل كلّ ملفّات الحزب، ملفّ الجنوب وملفّ المؤسّسات (مؤسّسة الشهيد ـ الجرحى ـ الأسرى ـ هيئة دعم المقاومة ـ جهاد البناء ـ الهيئة الصحيّة ـ صوت المستضعفين...) ويدرس كلّ هذه الملفّات ويقرأ تقاريرها، ويعطي توجيهاته بشأنها، ويشدّد على دور الإعلام في المعركة...

وكثيرًا ما كان يُرى، حتّى ما بعد منتصف الليل، وهو يقرأ التقارير ويُعدّ الخطط، ويحضّر للإجتماعات...

وإنْ غادر مبنى الأمانة العامّة فإلى الجنوب الّذي أَحبّ، لكي يتفقّدَ المجاهدين في المحاور، ويزورَ أهالي الشهداء والأسرى، ويعودَ الجرحى... لكنّه كان يبدأ بقراءة الفاتحة على أضرحة الشهداء... بدون أن ينسى زيارة العلماء الأجلّاء في كلّ قرية أو منطقة، باسطاً لهم يد السماحة والبِرّ، وإن كان بعضهم من غير خطّ حزب الله، أو على عداء معه... لإيلاف[1] القلوب وتوحيد الصفوف، وإعادة توجيه «البوصلة» نحو هدفها الصحيح... فكان قدَرُه (رضوان الله

(١) الإيلاف: جمع القلوب والمؤالفة بينها.

عليه)، دائمًا، أن يُلْحِم ما أَسْدَى غيرُه وثَلَم![1].

فإنْ عاد من الجنوب فلكي يتوجّه إلى الشمال ليزور صديقه الشيخ سعيد شعبان رحمه الله، ويزور القرى الشيعيّة في تلك المناطق النائية التي لم يسبقه إليها إلّا سماحة السيّد موسى الصدر (أعاده الله ورفيقيه بخير)!.

وكثيراً ما كان السيّد عبّاس رحمه الله يغادر لبنان إلى الشام فيزور مقام السيّدة زينب عليها السلام وهو يقول: «**لا زيارةَ تُقْبَلُ، ولا عملَ يبارَكُ إلّا بالمرور بالشام، فزيارة السيّدة زينب عليها سلام الله واجبة**».

ويتفرّغ، من ثَمَّ، لاجتماعاته، خصوصًا في السفارة الإيرانية في دمشق.

لهذه الحركة المباركة التي لم تكن تنتهي، كان السيّد يغيب عن بيته في بعلبك، عدّة أسابيع متواصلة... فتشتاق إليه أسرته، ويطلبه أولاده بحرارة. لكنّهم لا يحْظَوْنَ منه إلّا بمكالمة هاتفية سريعة يجدون فيها بعض السلوى...

وفي يوم راح ولده الصغير حسين يبكي بشدّة ورفض الطعام والشراب حتى يحضر والده. فكلّمه السيّد عبر الهاتف ليخفّف من سَوْرة غضبه وبكائه. فقال له حسين مُغْضَبًا: «لماذا لا تأتي إلينا؟!.

---

(١) ثَلَم: أحدث خللًا. والتعبير كناية عن أن السيّد يُصلح ما أفسَدَ الآخرون.

هل كبُر رأسُك لمّا صرتَ أمينًا عامًّا ؟!. فغاب السيّد في ضحكة طويلة...

ألا تُذكّرنا ثورة هذا الصبيّ بثورة أبيه صبيًّا ؟!. أفعجيبٌ، بعدُ، أن يؤول أمرُهما إلى مصير واحد؟!. ولكن، فَلْنرجىء الخوض في هذا الأمر مَهَلًا و رَيْثًا...

وهنا، لِسائلٍ أن يسأل: «أحقًّا لم يتغيّر السيد، وقد اعتلى سُدَّة الأمانة العامّة لحزب الله؟. ألم يشمخ بأنفه، ويتعالَ على الناس؟ ألم يكبُر رأسُه بها، بحسب تعبير ولده؟. أيُعقل أنّ الأمانة العامّة هي التي كَبُرَت به وعزّت، كما يُذاع ؟!».

ولِسائلٍ آخر، من موقع مختلف، أن يسأل أيضًا: كيف يمكن أن يتغيّر فيشمخَ ويتعالى... والدنيا ـ بكل مغرياتها ومناصبها وزخارفها ـ هي عنده، كما عند جدّه الإمام علي عليه السلام، أهونُ من عَفْطَةِ عَنْزٍ[1]، أو جَناح بعوضة؟!.

ونحن بين السائلَيْن لا نجيب... بل نترُك للحوادث أن تُحدّث... وللناس أن تحكم... وعسى أن يُنصِفَ التاريخ...

أمّا دورُنا، فبحسبنا أن نَنْدَهَ[2] الدلائل والعبر...

(١) عفطة عنْز: ما يتناثر من أنفها عند العَطْس. كناية عن حقارة الدنيا.
(٢) نَدَه الإبلَ: ساقها مجتمعةً. هنا استعارة.

يؤكّد مرافقو السيّد أنه كانت تأتيه أموال شرعيّة بقيمة خمسة آلاف دولار شهريًّا. فكان يصرفها على المقاومة وخدمة الناس وغوث المحتاجين... وكان يقول: «وقتي للناس ما دمت حيًّا».

وقال أحد تلامذته في الحوزة، وكان كثيراً ما يرافقه في جولاته:

«لقد كان السيّد مدرسةً في التقوى العملية، وكلّما ازدادت مسؤوليّاته وعلا منصبه، كلّما ازداد شفافية ورقّةً وتواضعًا... وازداد اهتمامه بهموم الناس ومشاكلهم... فكان بعلوّ نفسه ودُنوّه من الناس، تجسيدًا حيًا لمدرسة أهل البيت عليهم السلام».

وإذ لم يكن لنا مَنْدوحَةٌ من العودة ـ دومًا ـ إلى مرافقيه، إذ العَوْدُ إليهم أحمدُ، و«عند جُهينةَ الخبرُ اليقين»... فَلْنُصْغِ إليهم يَروون:

في أوّل الشهر، عند الساعة الواحدة ظهرًا، يقبض السيّد راتبه. وعند الساعة الرابعة يكون قد وزّع ثلاثة أرباع راتبه على الأُسَرِ الفقيرة... يضعُ المال في مغلّفات، فنستلمها منه، ونقوم بتوزيعها على أصحابها... فإذا كان يوزّع معظم راتبه على الفقراء، في أوّل الشهر، فما يكون مصير بيته وأسرته؟!.

ثمّة شابّ مُعاق اسمه «علي» كان يأتي إلى بيت السيّد في بعلبك، عندما يعلم أنّ السيّد قد حضر. فيُحاول الحرس منعه من الدخول، خصوصًا إذا كان هناك اجتماع مُهِمّ، أو أنّ السيّد يلتمسُ

فترة من الراحة، أو يَقْنِصُ سانحةً[١] لينام.

فَيَلِجُّ الفتى ويَضِجّ، كما يُنتظر من المساكين أمثالِه. فيسمعُ السيدُ لَجَاجةً ومُغاضَبَة... فيخرج مستطلعًا، ثمّ يؤوبُ حادبًا على هذا الشابِّ المعاق، فيُكرمه ويعطيه بعض المال، ثمّ يُمْهِلُه حتى ينصرف راضيًا مغتبطًا... كلُّ ذلك على حساب راحته وراحة أسرته... ثُمّ يقول للحرس: أَدخلوه عليّ كلَّما أتى، فإنَّ خِدمتَه عبادة. وإيّاكم أن تسيئوا معاملته، فإنَّ الله يغضبُ لغضبه ويرضى لرضاه!.

حتى اللصوصُ المسجونون كان لهم نصيبٌ في سَماحِه وذمّته، إذ كان (رضوان الله عليه) يحرَص على الإهتمام بعائلاتهم ويقول: «ما ذنبُ أطفال هؤلاء اللصوص ليتحمّلوا جريرةَ أعمال آبائهم؟! وهل تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى؟!. إنّهم أبناء مجتمعنا المبتلى بكلِّ مصائب الجهل والبطالة والحرمان... وفي غياب الدولة أو غيبوبتها، نحن مسؤولون عن شعبنا!».

ذات مساء، قال له مرافقه (أ.ع): هناك امرأة زوجها كسيح، ولها خمسة أولاد، ويعيشون في (تخشيبة زنكو). فقال له بالحرف: «دوّر هالسيارة لَشوف»... فذهب إلى (تخشيبتها)، وعاين بنفسه، مأساتها... ولكنه لم يعُد ويَعِدْ بقوله: «غدًا غدًا...» بل أمر، فورًا، ببناء ثلاث غرف ومطبخ وحمّام... ثمّ جهَّز البيت بالأثاث المناسب،

(١) يقنصُ سانحةً: يستغلُّ فرصةً مُؤاتية.

وأجرى لهذه الأسرة المبتلاة راتبًا شهريًا تعتاش به!.

جاءه، يومًا، صاحبُ حاجة، في أوّل الشهر. وكان السيّد قد قبض راتبه لتوّه، ووضعه تحت الفِراش. فما أنهى الرجل شرْحَ ما ألمّ به من خَصاصةٍ وفَقْر، حتى وهبه السيّد كلّ راتبه، ولم يترك لبيته شيئًا!.

وفي خضمّ غضب الطبيعة، انقطعت سيّارات الموكب في أعلى ظهر البيدر بسبب تساقط الثلوج بغزارة... كان مع الموكب سيّارة «رانج» رُباعيّة الدفع، فاستطاعت أن تجرَّ سيّارات الموكب واحدةً تلوأخرى حتى تجاوزت منطقة الخطر.

ولكنّ السيّد أوقف الموكب وأمر مرافقيه وسيّارة «الرانج» بإنقاذ جميع السيارات العالقة!.

لم يسأل عن أصحاب هذه السيارات، من أيِّ المناطق هُم؟ وما ديانتهم؟ أو مذاهبهم ؟. المهمّ أنّهم بَشرٌ مثلُنا... إخوةٌ لنا في الدين والوطن، أو نُظَراءُ لنا في الخَلْق...

لذا قال للشباب: «علينا مساعدة الجميع ... فالله يأمرنا بذلك!».

والشتاء في بعلبك، موصوف بشدّة الزمهرير والصقيع... فقصد بيتَ السيد، يومًا، رجلٌ فقير لا يملك ثمن مدفأة لتقي أولاده الصغار من شدّة البرد. ولم يكن السيّد ساعتئذ ـ يملك مالًا، فوهبَ

الرجلَ مدفأةَ منزله!.

يا لَهذا الإنسان، وطبيعة جِبِلَّتِه[1]! يُؤْثِرُ الآخَرين على نفسه وأهلِه ويهتمُّ بأولادهم على حساب أولاده... فلِلَّه، من أيّ جوهر صُنع؟!...

أهذا ما جعل الدكتور معاذ سعيد شعبان يقول عنه: «من عَرَفَه عَشِقَه». وجعل الشيخ غازي رعد يصفُه بمثال نبيّ مصغّر؟!.

ولئن آثَرْنا أن نَتَنكَّبَ[2] صعيد الغُلوّ والإغراق، فلا نقولَ مع القائلين ـ مع سلامة النيّة ونُبل القصد ـ إنّ سماحته مثالُ نبيّ... فإنّنا نطمئنُّ إلى القول بأنه على خُلُق الأنبياء، وأنّ سماحته نفحةُ عطر من جنائن النبوّة!...

ولعلّ في ما أثبتنا حتى الآن، من شمائل[3] السيّد عباس﷫ الدالة على كرم نحيزته[4] وعلوّ مقامه، كفايةً للإشراف على القصد وإيفاء الغاية... ولكنْ، ما حيلتُنا ونحن غرقى بحرٍ تَدْهَمُنا وتَعْصِفُ بنا لُجَّتُه... ولا تستبينُ لنا شَواطيه؟!.

فإذا بنا ـ بدلَ العوم ـ نغوص، فنقع على فَرائد[5] اللؤلؤ! ونَحارُ:

(١) الجِبِلّة: الخِلْقَة.
(٢) نتنكَّبُ: نتجَنَّبُ.
(٣) الشمائل: الأخلاق.
(٤) النَّحيزَة: الطبيعة.
(٥) الفرائد: الدُّرَر إذا نُظِمَتْ.

بأيّها نتشبّثُ؟... وبأيّها نستهين؟.. وكلُّها نفائسُ وأعلاق[1]!.

كذلك هي سجايا السيّد وبِيضُ فعاله... فما علينا لو ذكرنا ـ بعدُ ـ سجيّتَيْن؟:

عاد، ذات مساء، متَعبًا، من الجنوب، فنام. ثمّ جاء رجل مُسِنّ على موعد، فصرفه مسؤول المرافقة، وحُجَّتُه لا غبار عليها... فسماحته مُرْهَق، وهو نائم، فكيف يوقظه؟!.

ويعلم السيّد بالأمر فيغضب أشدَّ الغضب، ويصرف المسؤول مغيّرًا موقعه، ويقول: «لاأسمح بأن يتكرّر هذا أبدًا... أيقظوني من النوم. فهذا رجل مُسِنّ قصدني سيرًا على قدميه من مكان بعيد، وهو على موعد، ويعود خائبًا لأنّ (حضرتي) نائم؟!. هذا حرام! في أيّ شرع يجوز؟!».

وعندما هدأت ثائِرتُه ذكَّر المرافقين والحرس بذلك الحديث الشريف: «**إن لم تَسَعُوا الناسَ بأموالكم، فَسَعُوهم بأخلاقكم**». وهو الحديث الذي صاغه المتنبي شعرًا فقال:

لا خَيْلَ عندك تُهديها ولا مالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطقُ، إنْ لم تُسْعِدِ الحالُ

لم يكن السيّد عبّاس ينتظر أن يقصده المحتاجون، لعلمه بأنّ ثَمَّ مِنَ المتعفّفين مَنْ نظنُّهم، لعِفّتهم، أغنياء... فكان يسأل عنهم

(١) النفائسُ والأعلاق: الأشياء الثمينة التي يتنافسُ فيها الناس.

ويزورهم مستطلعًا أحوالهم... فكانت النساء الكبيرات يُقبّلنه في كتفه ويَشْمُمْنَ مِسْكَ عباءته... أمّا الرجال الكبار فيحاولون تقبيل يديه الطاهرتين، فلا يقبل... فيقولون له: «لولاك لا نعرف إلى مَنْ - بعدَ الله - نتوجّه... ليس لنا إلاّ الله وأنت!.

فيشعرون بزيارته لهم، كأنّه الأب المسافر وقد عاد إلى أولاده... وعندما يشكرونه على زيارته، مودّعًا يقول لهم: وقتي كلّه لكم، ما دُمْتُ حيًّا».

كان السيّد يستقبل الناس من الصباح الباكر إلى المساء، بل إلى وقت متأخّر من الليل، يستمع إلى شكاواهم، ويطيّب خواطرهم، ثمّ ينفّذ فورًا ما استطاع إلى تنفيذه سبيلا. أمّا إذا احتاجت المطالب إلى وقت للتنفيذ وإجراء الإتصالات وتأمين الإمكانيّات، فكان يدوّن في دفتره الخاصّ، الأسماء والمواعيد وأرقام الهاتف وقنوات الإتصال والعمل... فإذا عَهِدَ سعى، وإذا وعد وفى، «فإنّ كَرَمَ العهد من الإيمان»، بحسب منطوق الحديث الشريف..

فلا ينام حتى يعيد للمظلوم حقَّه، وللمَخُوف أمنَه، ولو اضطرّ إلى مَساعٍ قد يُبذَلُ فيها ماءُ الوجه!.

يجالسُ الناسَ ساعاتٍ طوالًا فيخدمهم ويُريحهم، وهو جالِسٌ على كرسيٍّ صُلْب غير مُريح... وأمامه طاولة صغيرة بسيطة سُمّيت -

ظلمًا ـ مكتبًا... يزهدُ فيها أيُّ موظَّف بسيط.

وصاحب الحاجة أَرْعَنُ... فكان السيّد يتحمّل اللَّجاجةَ والإلحافَ[١] في المطالب... ويرفعون صوتهم أحيانًا، كأنَّ لهم عليه دالَّة، ولا يطيقون انتظارًا لتنفيذ ما يَعِد... أو كأنه يملك خزائن كِسْرَى، أو كنوز سليمان عليه السلام وخاتمه... أو ورَث «العصا الموسويّة[٢]» ليضرب بها الصُّمَّ الصّلاب[٣] فيُفجّرَ عيونًا للعطاش!.

ويمرض السيد، ذات يوم، فيؤذيه ألَّا يجلس للناس، كعادته، كلّ يوم. فيقول له فضيلة الشيخ نعيم قاسم، وهو نائبه ـ آنئذ ـ في الأمانة العامة:

«لا عليك. أنا أكفيك هذه المهمّة».

وجلس لاستقبال الناس منذ الصباح... وتحمّل ما تحمّل حتى المساء... وقد تأذَّى مِن بعض المراجعين مُماحَكةً، ولَجاجةً، وعُسْرَ خُلُق!.

وما انتهى النهار وولّى شطر من الليل حتى حسَّبوه... جعلوه يقول «حَسْبيَ الله ونعمَ الوكيل!»

وفي اليوم التالي، بحسب رواية السيّد ياسر، ذهب الشيخ

---

(١) الإلحاف: الإلحاح.
(٢) العصا الموسويّة: عصا النبي موسى عليه السلام.
(٣) الصلاب: الصخور الشديدة الصلابة.

لعيادة السيّد فقال له: لك الله!. أريد أن أعرف كيف تتحمّل كلّ هؤلاء الناس وطلباتهم؟!... لقد بقيتُ إلى آخر الليل استقبلُهم وأبحث في طلباتهم... فأُصيبَ قلبي بالمرض!!»...

فللّه، كم كان قلبُ السيّد يحتمِل ؟!.

مع المسلمين في العالم

(باكستان ـ كشمير ـ أفغانستان)

منذ مؤتمر المستضعفين الذي انعقد في طهران (١٥ شعبان ١٩٨٢) لِلَمِّ شتات العرب والمسلمين والمناضلين، ونصرة قضاياهم العادلة خصوصًا القضيّة الفلسطينيّة، والسيد عبّاس ﷺ يمُدُّ ببصره إلى هذا العالَم الإسلامي الرحب لينصره وينتصر به. وقد جاءته الفرصة الذهبيّة يوم تلقّى حزبُ الله دعوةً لحضور المؤتمر الإسلامي في باكستان، وجّهها إليه السيّد ساجد نقوي زعيم حركة تنفيذ الفقه الجعفري في أفغانستان. فتوجّه السيّد عبّاس على رأس وفد يضمّ ـ فيمن يضمّ ـ الصحافي الأستاذ عطالله حمود[1] لتغطية وقائع المؤتمر.

كان الإنطلاق يوم التاسع عشر من آذار عام ١٩٩٠ إلى إسلام آباد عاصمة باكستان حيث انعقد المؤتمر.

ولم يكتف السيّد بمشاركته الفعّالة جدًّا في هذا المؤتمر بل راح يعقد لقاءات جانبيّة ليتعرّف أكثر إلى هذه القوى والجماعات الإسلامية السياسية والدينية والجهادية المنتشرة في هذا العالم الإسلامي.

---

(١) لقد اعتمدنا معلوماته أساسًا للحديث عن رحلة باكستان.

لم يكن سماحته يهدأ ساعةً من نهار أو ليل إلّا ويقوم باجتماع هنا ولقاء هناك... ولم يميّز شيعة من سنّة. إنّه هناك في قلب البحر المحيط، وليس على ضفّة جدول أو نهر!.

وكان رائده الوحدة الإسلاميّة التي هي سفينة النجاة للجميع، وأمل المستضعفين في حياة حرّة وكريمة. فإذا كان أعداء المسلمين في كلّ مكان، قد وحّدوا صفوفهم وشكّلوا منظومة الإستكبار العالمي، ابتداءً من المؤتمر الودّي الذي عقدته الدولتان الإستعماريّتان بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ واتفقتا فيه ـ كما يوحي عنوان المؤتمر ـ على إيقاف الحروب الفرنسية ـ الإنكليزيّة والصراع على المستعمرات، والاستعاضة بدلًا من ذلك بالتعاون على القضاء على الإمبراطوريّة العثمانيّة (الرجل المريض)، وتقاسُم العالَمين العربي والإسلامي بين بريطانيا وفرنسا. فالغنائم كبيرة في هذا العالم الإسلامي الشاسع والغني... والمائدة دسمة ولذيذة، وتتّسع لها بطونُ الذئاب جميعًا، فعلامَ التناحر؟!.

وقد نتج من هذا «اللقاء الودّي» الاستعماري احتلال هاتين الدولتين لبلدان العرب والمسلمين، مرّة بشكل سافر، ومرّة تحت إسم ملطّف هو «الإنتداب»، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى.

كما نتج منه معاهدة سايكس بيكو ونكبة فلسطين، والتخلّص من يهود أوروبا بقذفهم في قلب العرب والمسلمين (فلسطين) لاستنزافهما

عسكريًا واقتصاديًا ومنع تقدُّمهما باتجاه أيّ خطوة وحدوية.

وهذا هو الدكتور «ناحوم غولدمان» رئيس المؤتمر اليهودي العالمي يعترف بهذه الحقيقة عام ١٩٥٣ في احتفال معرض الكتاب اليهودي العالمي في مونريال كندا فيقول:

«لم يختر اليهود فلسطين لمعناها التوراتي والديني بالنسبة إليهم، ولا لأنّ مياه البحر الميت تعطي، بفعل التبخّر، ثلاثة مليارات دولار سنويًا من المعادن وأشباه المعادن. وليس أيضًا لأنّ مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرّة، مخزون الأميركتَيْن مجتمعتين. بل لأنّ فلسطين هي ملتقى الطرق... والمركز الاستراتيجي للسيطرة على العالم»[1].

إذا، وباعتراف «غولدمان»، لقد زُرِعَ اليهودُ في فلسطين، وهي قلب العالَمين العربي والإسلامي، لتقسيمهما وضربهما معًا!!.

ثمّ ظهرت الولايات المتحدة الأميريكية، في أواخر الحرب العالمية الثانية، بقوّتها العسكرية والإقتصادية لتحلّ تدريجياً، محلّ بريطانيا وفرنسا وتصبح الدولة الإمبريالية الكبرى في العالم. فتبنّت إسرائيل ورأست الاستكبار العالمي وراحت تتصرّف بالعالَمَيْن العربي والإسلامي لمصلحتها ومصالح حلفائها، خصوصاً ربيبتها إسرائيل.

(١) جريدة الإتحاد الوطني في «مونتريال» عام ١٩٥٣.

في هذا الفضاء الفكري وهذه الرؤية الاستراتيجية كان يجول فكر السيّد عبّاس في باكستان. وكان يتساءل أمام كلّ من يجتمع بهم: إذا كان العدوّ قد وحّد صفوفه وحدّد أدواته الفتّاكة، «وسنّ أسنانه» لالتهام الأمّة جميعاً... أفلا يحقّ لهذه الأُمَّة المتفرّقة أن توحّد جهودها وتنظّم صفوفها للدفاع عن نفسها ووجودها ودينها في وجه هذا العدوّ الغاشم أو الوحش المفترس المتمثّل بأميركا وإسرائيل وما يسمّى بالمجتمع الدولي السائر في ركابهما؟!. فإلى متى يجتمعون على باطلهم، ونحن نتفرّق عن حقّنا؟!.

كان لكلمات السيّد هذه وآرائه في قلوب المسلمين في باكستان وفي عقولهم أصداء رائعة...

ولم تقتصر لقاءاته على العاصمة إسلام آباد، بل انتقلت إلى المدن البعيدة والقرى والأرياف. فزار خمس عشرة قرية شيعيّة في منطقة بعيدة جدًّا في باكستان تسمّى «بريجينار» حيث عطف على الفقراء والمستضعفين.

وكان من الثمار المباركة لنشاط سماحته في إسلام آباد، أن وحّد تسعة أحزاب باكستانية شيعيّة في حزب واحد هو حزب العمل الإسلامي، وذلك بعد أن عقد اجتماعات مطوّلة مع كلّ حزب على حدة لتقريب وجهات النظر وإيلاف القلوب.

هذا على جبهة الأحزاب الشيعية، أمَّا على الجبهة السنّية فقد عقد السيّد لقاءات مطوّلة مع سبعة أحزاب، كلٌّ على حدة، ثمّ جمع زعماء هذه الأحزاب السبعة في اجتماع واحد، وذلّل لهم العقبات العشائرية والسياسية التي كانت تقف حائلاً دون توحّدهم، مذكّرًا إياهم بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تدعو إلى الوحدة ونبذ الفُرقة.

ثمّ وصل إلى الخطوة الجبّارة والرائدة، إذ جمع زعماء أحزاب الشيعة بزعماء أحزاب السنّة، كاسرًا الجليد المتراكم عبر التاريخ، ومؤلّفاً بين القلوب المتنافرة، تمكيناً لطائر الإسلام أن يحلّق بجناحيه السنّي والشيعي، متسلّحًا بالآية الشريفة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1].

وزار السيّد عبّاس في باكستان قبر الشريف عارف الحسيني، وهو مؤسِّس حركة تنفيذ الفقه الجعفري.

كما زار مدينة «راول باندي» الحدودية مع أفغانستان، حيث التقى زعماء المجاهدين الأفغان: حكمتيار وربّاني ونصرالله منصور وعبد ربّ الرسول سيّاف وغيرهم.

لم تكن باكستان آخر محطّة في رحلة السيّد عبّاس إلى دنيا

(١) الحُجرات: الآية ١٠.

المسلمين. بل كانت بحقّ، المحطّة الأولى. إذ امتدّ نظره وأشواقه نحو منطقة كشمير الواقعة بين باكستان والهند وتمتدّ حتى التبت والصين.

نالت كشمير استقلالًا صوريًّا عام ١٩٤٣، وما زالت محلّ نزاع بين الهند وباكستان. وهي بلاد غنيّة بالحديد والفوسفور والغاز، ومشهورة بأقمشتها التي يصنعون منها شالات كشمير.

كان رئيس حكومة «كشمير الحرّة» سردار عبد القيّوم قد حضر مؤتمر إسلام آباد، فاجتمع به السيّد عبّاس وتلقّى منه دعوة لزيارة كشمير فلبّى السيّد الدعوة مرحِّبًا، فزار منطقة «جامو» في تلك البلاد الإسلامية القصيّة. كما زار قبر الشهيد لياقت حسين أعوان، وهو أوّل شهيد كشميري.

عند هذا الحدّ من رحلة الجهاد هذه كان الوفد المرافق للسيد قد أُرهِقَ تمامًا، فالمناطق التي زاروها كثيرة ومتنازحة، والزيارات والإجتماعات واللقاءات لا تكاد تنتهي... لذا قالوا للسيد:

ـ ما أحلى الرجوع إلى الوطن!.

فأجابهم باستغراب:

ـ وهل بدأت رحلة الجهاد حتى ننهيها هنا؟!.

ـ وماذا كنا نفعل في باكستان وكشمير حتى الآن؟!.

ـ إنّ كلّ ما فعلناه جيّد، وسنُثابُ عليه جميعًا بإذن الله. ولكنّنا لم نزُر بعد أرض الجهاد المقدّس في أفغانستان... لم نلتقِ بالمجاهدين الأفغان في ثغورهم، في جبالهم وكهوفهم يقاسون الجوع والبرد والتشرّد والبعد عن الأهل والديار، ويقاومون الأعداء المستعمرين... فلا بدّ من زيارة هؤلاء المجاهدين الأبطال في معاقلهم!.

قام السيّد باتصالاته بزعماء المجاهدين الذين التقاهم في «راول باندي»، فأمّنوا له ولمرافقيه زيارة عدّة أماكن في أفغانستان، ولقاء «بالأُسود في عرائنها!».

لقد عانى السيّد وصحبهُ صعوباتٍ جمّةً في تلك الرّحلة الشديدة الخطورة، فالسماء مستباحة للطائرات الروسية التي كانت تقصف بلا رحمة كلّ قافلة أو رتل من السيارات تشتبه بأنها ذات علاقة بالثوّار. يضاف إلى ذلك وعورة الطرق الجبلية والظروف المناخيّة القاسية إذ كانت الأمطار الغزيرة والسيول الجارفة قد أدّت إلى تعطيل السيّاراتِ بعد إعاقة تقدّمها، مما آذن بالعودة.

ولكنَّ السيّد أصرّ على أن يتابع رحلة الجهاد ولو سيرًا على الأقدام!

لقد كان للسيد مَحَجّتان أساسيّتان في تلك البلاد: المحجَّة الأولى عبارة عن قرية صغيرة كلُّ أهلها من الشهداء! إذ كانت

الطائرات الروسية قد قصفتها فقضت فيها على ثمانمائة شهيد من النساء والأطفال والرجال... فَعُرِفَتْ بقرية الشهداء.

نزل السيّد في تلك القرية وزار قبورها وقرأ الفاتحة على أرواح شهدائها، ثمّ صلَّى على ثَراها، وقبّل أرضها المقدّسة. كما حمل معه حفنة من تربتها المخضّبة بدماء الشهداء.!

أمّا المحجّة الثانية فكانت «عرائن الأُسود». فعندما وصل السيّد إلى سفح الجبل الذي ينتشر في ذراه وكهوفه المجاهدون ومنها ينتقلون للقيام بعمليّاتهم الجهاديَّة ضدّ المحتلّ، ظَهرَ هؤلاء المجاهدون من مكامنهم، وهبطوا إلى سفح الجبل ليستقبلوا السيّد ومرافقيه...

وكانت لَحَظاتٌ من العمر لاتُنْسَى... لقد عانق المجاهدون السيّد عبّاس وراحوا يشمّون ثيابه ويقبّلون وجهه ورأسه، ولحيته الشريفة، وهم يبكون، لأنه ترك بلاده البعيدة جدّاً وجاء سيراً على قدميه لكي يتفقَّدهم في جبالهم الموحشة التي لا يكاد يزورهم فيها أحد... اللَّهمَّ إلّا طيران العدوّ!

سُرَّ السيّد كثيرًا بهذا اللقاء، فراح يقبّل المجاهدين ويشُمُّ رائحة عرقهم وجهادهم ويبكي، فيبادلونه الدموع ونظرات الحبّ والوَجْد!. ثمّ جلس معهم وأخذ يسألهم ـ عبر مترجم ـ عن ظروف حياتهم ونضالهم، فحدّثوه عن أساليب قتالهم وأنواع سلاحهم وطرائق معيشتهم... ثمّ تجوّل معهم بين المواقع والثغور، فرأى بأُمِّ

العين حياتهم القاسية في أعالي تلك الجبال، ومضاجعَهم بين الصخور وفي المغائر والكهوف.

وبعد أن أكل السيّد من زاد المجاهدين وتوضَّأ وصلَّى على أرضهم الطاهرة، أَزِفَتْ لحظة الوداع... فما كان أَشَدَّ وقعَها على الجميع!. خصوصًا عندما شاهد المجاهدون ما حمله السيّد معه من تراب قرية الشهداء، ذكرى طيّبة من أرض البطولة والفداء... فما تمالكوا أن عانقوه طويلاً وهم يبكون بحرارة، ويعجبون لعظمة هذا الإنسان الذي يحبّهم كلّ هذا الحبّ، وتَجَشَّمَ في سبيل لقائهم كلّ المخاطر، وهو لا يعرف حتى لغتهم!.

ثمّ هبط السيّد والوفد المرافق سفحَ الجبل، فهبطوا معه مشيّعين... وعاد السيّد سيرًا على الأقدام كما جاء... وبعد كلّ بضع خطوات كان يلتفت إلى الوراء ملوّحاً لأحبّائه المجاهدين بيديه، وهُم يبادلونه تحيّة الوداع....

عَوْدٌ على بَدْء..

عاد السيّد عبّاس من رحلة الجهاد إلى دنيا المسلمين، وهو يشتعلُ شوقًا ورغبةً في متابعة النضال ضِدَّ العدوّ الإسرائيلي الذي ما زال يحتلُّ أرضنا ويسرقُ مياهنا ويهتكُ حرمة أجوائنا ومياهنا الإقليميَّة. وتابع السيّد سياسةَ الانفتاح على الأخوة السنَّة حتى لا يسمح للسياسة الأمريكية وأدواتها ومُنفّذيها من المتسلّطين على رقاب الأُمَّة أن ينفذوا من الثغرات المذهبيَّة والقوميَّة لضرب الإسلام بالعروبة والشيعة بالسنَّة، لإضعاف الجميع وإراحة إسرائيل والسيطرة على كلّ مقدّرات هذه الأُمَّة.

على هذه الدرب دربِ الوحدة الإسلامية التقى السيّد عبَّاس ﵀ برئيس الحركة القوميَّة في تونس راشد الفنوشي، واستعرضا كلَّ القضايا التي تهمُّ العالَمَيْن العربي والإسلامي مشْرقًا ومغربًا، خصوصًا القضيّة الفلسطينية التي هي القضيَّة المركزيّة لنضال المسلمين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم وانتماءاتهم القوميّة.. واتَّفقا على استمرار اللّقاء والتعاون لخدمة القضيَّة.

كما أجرى السيّد لقاءات مع بعض الأخوة الجزائريّين، ومنهم الأخ يزيد الجزائري الذي غيَّر اسمه إلى «زَيْد». ولشدَّة تأثُّره بالآفاق

الفكريّة والسياسيّة للسيّد عبّاس، رجع زيدٌ إلى لبنان ومعه سبعة أشخاص جزائريّين للدراسة في حوزة الإمام المهدي ﷺ!.

وفي عام ١٩٩١ ظَهَرَ اتفاق مدريد لتطويق الانتفاضة الشعبية الفلسطينية وتكبيل العمل الفلسطيني المقاوم وفرض المزيد من التنازلات لصالح العدوّ الإسرائيلي على حساب الأرض وحقّ االعودة.

لذا نادى السيّد عبّاس لوقف هذا التدهور في القرارِ الرسمي الفلسطيني والموقف السياسي العربي، فجَمَعَ عشرَ فصائل فلسطينية، في طهران، للتصدّي لاتفاق مدريد الخطير والمذّل..

وبفضل المساعي الحميدة والجهود المباركة للسيد استطاعَ أن يُحيّد التناقضات المختلفة بين تلك الفصائل (تيّار إسلامي ـ قومي ـ ماركسي ـ ليبرالي ـ علماني..) ويوحّد الجميع في وجه المؤامرة الأمريكية ـ الإسرائيلية التي تستهدف تصفية القضيَّة الفلسطينية. وصدر هذا الموقف الفلسطيني الموحَّد في ما عُرِفَ «بإعلان طهران» على أثر اتفاق مدريد عام ١٩٩١.

ويعترف الأخوة الفلسطينيّون حتى اليوم، بأنَّ الذي وحَّدهم هو شخصٌ واحد اسمه عبّاس الموسوي!.

نحو وحدة إسلامية

يقول المناضل الفلسطيني الأخ أبو موسى: «إنّ السيّد عبّاس كان صاحب رؤية استراتيجية». وهذا توصيف حقّ. وقد نبعت رؤية السيّد الإستراتيجيّة هذه من قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

من استراتيجيّته أنه يستغرب كيف يجوز لمن يملك البحر المحيط أن يَتَقَزَّمَ في مَبْرَكِه، أو يتشبَّثَ بجزيرة صغيرة تفصله وتعزله عن باقي الجُزُر في هذا المحيط الرّحب؟!.

من استراتيجيته أنه ينظر إلى الغابة في امتداداتها البعيدة... ويَرْقُبُ تلألؤ ذُؤاباتِها[2] تحت الشمس... ولم يكن يدنو كثيراً من الشجرة حتى لا يلتصق بها فتمنعَه من رؤية الغابة!.

من استراتيجيته أن ثبّت لسان الميزان عَدْلًا بغير انحراف، ولم يخش، في إحقاق الحقّ وانتهاج القسطاس[3]، قرابةَ قريب أو لومة لائم.

---

(١) الأنبياء: الآية ٩٢.

(٢) ذُؤابات الأشجار: أعلاها، رؤوسُها.

(٣) القسطاس: الميزان، والعَدْل مجازًا.

ومن استراتيجيته ـ والكلام يطول ـ أنْ وجّه إبرة البوصلة نحو العدوّ الحقيقي: إسرائيل ومَن زرعها ويغذّيها ويؤازرها على الغدر والظلم،من أمريكا والاستكبار العالمي والصهيونيّة الدوليّة.

ومن خصائص هذه الرؤية الاستراتيجية أنّها لم تكن مجرّد ترف فكريّ، أو رياضة ذهنيّة يُعَبَّرُ عنها بثرثرة كلاميّة جوفاء تطيرُ فُقاعاتٍ ونُفّاخاتٍ سرعان ما تتلاشى بلا أثر...بل لقد تُرجمت عبر مواقف وآراء كانت رائدة في مبدئيّتها!

يقول الشيخ نبيل طالب الحلباوي، في حديثه عن السيّد عباس: «الإنسان هو رؤية فكرية، جُملة قيم وأخلاق وسلوك... فالدين عنده يقوم على قاعدة من الرؤية الكونية، ثمّ يؤسّسُ عليها قيمًا وأخلاقًا، ثمّ يرسم معالم مميّزة للنظام السياسي والإقتصادي والإجتماعي والتربوي والسلوك العبادي والمعاملي...».

ذَلِكُم هو الأُفق الاستراتيجي لإيمان السيّد عبّاس وفكره وسلوكه... ومن تجلّيات هذا الأفق أنه أجال النظر في لبنان والمحيط العربي والعالم الإسلامي، فرأى الناس ـ وهم طيّبون في فطرتهم ـ قد وقعوا في الفخّ الذي نصبه لهم أعداؤهم، فزاغت أبصارهم حول الطُّعْم، فهُرِعوا إليه مُتنافسين حتى وقعوا جميعاً بين فكّي المصيدة!. وإذا بالفتن الصغيرة المتنقّلة بين الأحياء والزواريب في مختلف

المناطق من لبنان، تُضَيّعُ البوصلة من أيديهم، فيظنّون الصديقَ عدوًّا، ويَعُدُّون العدوَّ صديقًا!. وما دَرَوْا أنهم جميعًا ساقطون في الأخدود[1].

وبعد رحلة المعاناة التي أرهقتهم بين الفتن المصطَنعة، انطَلَتْ عليهم الحيلة من جديد، فظنّوا أنّ الإستسلام لإسرائيل وأميركا يريحهم من عذاباتهم وينزّل عليهم موائد المَنّ والسلوى من سماء العمّ سام... وبات طابخُ السُّمِّ هو نفسُه واهبَ الدَّسَم!!.

وإذا بصوت السيّد عبّاس يَهْدرُ كالبحر الهائج ويُرعِدُ في مُدْلَهِمّات الدياجير ـ يعاونه صديقه وأخوه الشيخ راغب حرب ﷺ ـ بضرورة تصويب البوصلة، وحمل لواء المقاومة، وتسديد كلّ البنادق نحو صدور الإسرائيليّين وأعوانهم.

ذلك كان الهدف من مسيرة السيّد عبّاس ومعاناته حتى تمكّن من إقناع الناس، وفتَحَ أعيُن الغافلين.

بعد سلسة الهزائم التي حلّت بالعالم العربي وكبّلت مناضليه، من نكسة عام ١٩٦٧ إلى الإجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢،قام السيّد بجمع فلول المنهزمين... فلم يطرح الإسلام بديلًا فحسب، مُهمِلًا وجهات النظر الأخرى المختلفة معه، بل انفتح على كلّ

---

(١) الأخدود: شَقٌّ أو حُفرة طويلة في الأرض.

القوى والأحزاب حتى لا تشعر بالغبن والإنهزام... وكانت قولته المشهورة لهم:

«في رحاب النضال والجهاد ضدّ العدوّ الإسرائيلي، هناك مُتَّسَعٌ للجميع!».

كان حزب الله في بداياته قليل العدد محدود الإمكانيّات. وكان عناصر حزب البعث العراقي وغيرهم من القوى القوميّة والعلمانية يريدون السيطرة على البقاع. فراحوا يطلقون النار على شباب حزب الله، في بعلبك ويُسقطون عدداً من الضحايا والشهداء.

ثارت الثوائر، فاجتمع عدد من قادة الحزب ـ كما يروي عصام فؤاد عواضة ـ وطالبوا بالقِصاص، والرَّدّ على النار بالنار...

وإذا بالسيد عبّاس يدخل بكلّ وقاره وهيبته، ويُهَدّئ النفوس الثائرة ويقول للأخوة المجتمعين، ببعد نظره المعهود وبوصلته التي لا تنحرف:

«هؤلاء الشباب مضلَّلون ويجب علينا أن نهديهم لا أن نقضي عليهم... هؤلاء ذخيرتنا للمستقبل».

وبقدرة قادر حُلّت المشكلة... ثمّ انضمّ كثيرون من هؤلاء الشباب إلى صفوف حزب الله...

وهكذا استطاع السيّد عباس، بفضل إيمانه بربّه ونهج رسوله ﷺ

وأهل البيت المطهّرين عليهم السلام وتعاون الأخوة في الحزب ـ إضافة إلى وعيه الاستراتيجي ـ أن يُحوّل مجموعة قليلة تتعرّض للسخرية والاعتداء، إلى حزب كبير وأُمَّةٍ هادرة استطاعت أن تحقّق الإنجازات الكُبَر حتى غدت مفخرةً في النضال، ومضرب مَثَلٍ في البطولة... بل محطّ أنظار العالم!.

وأْد الفتنة

نظر السيّد عباس (رضوان الله عليه) إلى هذه الأمّة الإسلاميّة الكبيرة التي يناهز عددها مليارًا وأربعمائة مليون نسمة منتشرين في هذا العالم، فوجدها منقسمة طولًا وعرضًا، أو بالأحرى انقسامًا عاموديًّا بين عربية وغير عربية، وانقسامًا أفقيًّا بين سنّية وشيعيّة.

وإذا بالمستعمر وربيبته إسرائيل يغذّيان هذا المنحى التقسيمي ويُحَوّلانه إلى مشروع فتنة يعملون له ليل نهار لضرب المسلمين في ما بينهم، بعد أن اصطنعوا لهم حدودًا وهميّة وجعلوهم حُرَّاسًا عليها، وهي في حقيقتها ألغام مُعَدَّة لتنفجر بهم، كلّما تداعَوْا إلى الوحدة!.

ويتصدَّى، السيّد عباس، من لبنان، لضرب هذا المشروع الفتنوي، فينفتح على القيادات السنيّة وعلى مشايخ أهل السنّة والجماعة فيرأب الصدع ويَمُدُّ الجُسور ويزيل ركام الغبار التاريخي

الذي تكاثف إلى حَدّ التكلُّس والتشمُّع، وبات ينذر بالشلل والموت.

وكان من انفتاح سماحته على الجماعة الإسلامية في صيدا أنَّ بعض الأخوة من السنّة قد شاركوا في بعض العمليّات الجهاديّة ضدّ إسرائيل وعملائها اللّحديين، كما حصل في عملية برعشيت الأولى. كما أنّ عملية علمان الشومريّة الأولى شارك فيها مجاهدون من السنّة وسقط فيها شهيد سنّي من صيدا هو حسن الكبش!..

وها هو الشيخ غازي يوسف حنينة يعترف بفضل السيّد عبّاس في توحيد بندقيّة المقاومة الإسلامية ضدّ العدوّ الواحد، فيقول: إنّ السيّد قد أعطى قائد قوات الفجر في صيدا، الشهيد جمال حبّال، أسلحة وذخائر ليقاتل بها عدوّ الأمّة جمعاء!.

ويتحرّك السيّد إلى طرابلس فيعقد أمتن العلاقات الأخويّة مع رئيس حركة التوحيد الإسلامي الشيخ سعيد شعبان؁ وينسّق معه في أمور كثيرة، ثمّ يُهديه السيّارة المصفّحة التي أُهديَتْ إليه ورفض الاستفادة منها مُؤْثِرًا صاحبَه على نفسه!. ويتنامى إلى مسمع السيّد أنّ شيخًا سلفيًّا في طرابلس، يسيء إلى الشيعة ويتّهمهم بالكفر!...

فلم تَهْدُرْ مراجل[1] السيّد ولم تَثُرْ براكينُه... بل استوعب الأمر بهدوء وعالجه بحكمة. فاتصل بصديقه الشيخ سعيد وسأله أن يؤمّن

(١) مراجل: مفردها مِرْجَل، وهو القِدْرُ من نُحاس أو حديد، والخزّان في الآلات البخارية.

له لقاء مع هذا الشيخ السلفي (الشهّال). فتأمّن اللقاء وكانت جلسة مصارحة وانكشاف... يقول بعض من حضر هذا اللقاء من مرافقي السيّد إنّ الشيخ السلفي كان ينعت الشيعة بنعوت منفّرة ويتّهمهم في دينهم ودنياهم، وأنّهم بَراء من هذا الدين الحنيف!..

كلّ هذا والسيد صامت هادىء يصغي من غير مقاطعة حتى أفرغ الشيخ كلّ ما في جعبته... عندئذ نظر إليه السيّد عبّاس مبتسمًا وقال:

ـ بدايةً أشكركم، يا سماحة الشيخ، على هذه المصارحة لأنّها ضرورية للإضاءة على المشكلات العالقة بيننا عبر التاريخ، ومحاولة فهمها ومعالجتها بما يُرضي الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وبما يعود بالخير والعزّة على الأمّة الإسلامية ووحدتها بإذن الله...

هنا بدأ الشيخ ينظر إلى السيّد نظرة مختلفة، هي نظرة الاستغراب. لعلّه توقّع أنّ السيّد لن يتحمّل منه كلّ هذا التهجّم، بل سيكيل له الصاع[1] صاعَيْن، ثمّ ينسحب من الجلسة ويلعن الساعة التي جالسه فيها...

ولكنّ السيّد لم يفعل شيئًا من هذا القبيل. بل شكرَ الشيخَ على صراحته، فهي ـ في حدّها الأدنى ـ بادرة خير ليس فيها نفاق!. وهي، بعدُ، أساس صالح للبناء... ويبدأ البَنَّاءُ الماهرُ فيستعيدُ كلامَ الشيخ

---

(١) الصاع: مِكْيال قدرُه أربعة أمداد وهنا كناية على الردّ العنيف.

نقطة نقطة، وبندًا بندًا، فيشرح ويُوضح، ويُقارِنُ ويستنتج، ويستشهد دائمًا بكتاب الله والمتَّفَق عليه من الحديث والسنّة النبوية المطهّرة... فإذا به يُعيدُ الفرعَ إلى الأصل، ويُبْدي فيه الكلام الفصل!.

خلال الجلسة التي طالت عدّة ساعات بدا الشيخ مبهورًا بهدوء السيّد واتزانه وفصاحته وغزارة علمه وأسلوبه الخَلُوق في مُحاجّته وردوده... وكان يهزُّ برأسه موافقًا. وما إن انتهت الجلسة حتى قام الشيخ لتقبيل السيّد والاعتذار إليه وإلى عموم الشيعة عمّا بدر منه من الإساءة بحقّهم!.

هكذا كان السيّد عباس ﷺ يقلب الموازين مطبّقًا الآية الشريفة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

فإذا كان الرسول قد أُمِرَ بأن يجادل المشركين والكفّار، بالتي هي أحسن، فما بالُنا لا نتجادل بها، ونحن جميعاً مسلمون؟!.

ولو كان السيّد استشاط غضبًا فلَعَنَ كما لُعِنَ، وكَفَّرَ كما كُفِّرَ، لكان المستعمِرُ والإسرائيليُّ صفّقا له ضاحكَيْن مُنتشيَيْن، وردّدا مع المتنبي في هجاء كافور: «يا أمّةً ضحكَتْ من جهلها الأُمَمُ!».

وكان طبيعيًّا أنّ هذا المآل الذي آلت اليه أمور المسلمين في لبنان من مظاهر التفاهم والتعاون والوحدة، لم يُعجب الأعداء... بل

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

أذهلَهم:

ما بال هؤلاء المسلمين يتعاونون على البِرّ والتقوى والجهاد، ولا يتعاونون على الإثم والعدوان؟!. فكانت الفتنة اللبنانية الفلسطينية، عبْرَ ما عُرف ـ أيّامها ـ بحرب المخيّمات بين الأخوة في حركة أمل والأخوة الفلسطينيّين.

ثمّ انجلت الحقيقة، وظهَر أنّها كغيرها من الحروب والفتن المتنقّلة في لبنان- حرب سياسيّة لتصفية حسابات إقليميّة ودوليّة... وإذكاءً لنار الفتنة اللبنانية الفلسطينية أُلبِسَتْ ثوبًا مذهَبيًّا هو أشبه بقميص عثمان، فبدت كأنّها صراع سُنّي شيعي!.

رفض السيّد عبّاس هذه الفتنة وقال قولته المشهورة: «**لا نريد أن يُقْتَلَ الفلسطينيّون بسيف أمير المؤمنين**عليه السلام». وراح يزور المرجعيّات الدينيّة من سنيّة وشيعيّة، ويتّصل بالقيادات السياسية، ويجري لقاءات مطوّلة في مواقع القتال ومناطق الحصار... فيقابل المسؤول العسكري في حركة أمل داود داود، ويتفقان على إطفاء النيران وتهدئة الخواطر... فكان السيد، بحقّ، طبيباً دوّاراً بطبّه، قد أحكمَ مراهمَه، وأحمى مواسمَه، بحسب منطوق الحديث الشريف.

ولكن، تجري الرياح... رياحُ الفتنة وتشتدّ وتتحوّل إلى مواجهة مؤسفة شيعيّة شيعيّة بين الحركة والحزب، وذلك منذ عام ١٩٧٨.!

ويغضب السيّد عبّاس لهذا الواقع المرير أشدّ الغضب... فما كلّ هذه الهدايا الثمينة التي نقدّمها مجانًا لأميركا وإسرائيل ؟!. وما بالُ هؤلاء الشهداء، من الجانبين، يسقطون في غير ساحة الشرف الحقيقيّة التي تستحقُّها دماؤهم الطاهرة؟!.

وراح السيّد يصرخ في كلّ مكان، فلمّا رأى نفسه صارخًا في البرّيّة، قاطع اجتماعات الشورى واعتزل العمل السياسي والنضالي، واعتكف في بيته عدّة أشهر يصوم معظم أيامه ويَصِلُ الليل بالنهار صلاةً ودعاءً وابتهالًا إلى الله تعالى لإجلاء الغُمَّة عن هذه الأمّة.

لكنَّ إخوانه في الشورى والحزب لا يتركونه، ولا يستغنون عن حكمته وجرأته وثاقب رأيه وبُعد نظره... ويناشدونه بالله ورسوله ﷺ وجدّه أمير المؤمنين عليه السلام وجدّته الزهراء عليها السلام... لكي يعود إليهم ويناضل معهم إكمالًا للدرب التي بدأوها سويًّا...

ويضعف السيّد أمام ذكر أسياده وأوليائه، فيعود إلى العمل وفي العين قذىً وفي القلب شجًا على تلك الضحايا البريئة من الأخوة المتقاتلين.

وأوّل ما فعله هو جولة على مواقع الأخوة في الثغور ليتفقّدهم فقد اشتاق اليهم واشتاقوا إليه... فذكّرهم بعدوّهم الحقيقي الرابض على صدورنا والمحتّل أرضنا والسارق مياهنا... هذا هو العدوّ الحقيقي الذي ينبغي ألّا نتوه عنه لحظة من حياتنا.

وزار السيّدُ الرئيس نَبيه برّي واتفقا على السعي سويًّا لإنهاء هذه الحرب المأساة بين الإخوة.

كما زار في الجنوب، الشيخ حسن المصري، وهو مسؤول كبير في حركة أمل، فخاطبه من القلب للقلب، وكسر الجليد بينهما منطلقاً من الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1]... ولم يزَلْ به حتى بكى الشيخ وقام إلى السيّد عبّاس فتعانقا وهُما دامِعا الأعين.

وعندما خرج السيّد من منزل الشيخ قال لمرافقيه: «أرأيتم كيف دخلنا على الشيخ حسن وكيف خرجنا من عنده ؟ هذا الرجل طاهر!. وكلّ الناس طهارة ولكنْ يحتاجون إلى من يتكلّم معهم... علينا فقط أن نحسن مخاطبتهم».

وتأتي الفتوى التاريخيّة من الإمام الخميني ﷺ بتحريم هذه الحرب الأخويّة المؤسفة سواء الشيعيّة الشيعيّة أو السنيّة الشيعيّة، أو اللبنانية الفلسطينية أو أي لَبُوس آخر لبست أو قناع اتخذت... فهي مَقيتةٌ مَقيتة، وحرام حرام!.

وتنتهي الفتنة بحمد الله بكلّ أوجهها وأشكالها، وشهد الجميع للسيد عبّاس (رضوان الله عليه) بأنه كان فعلًا، ذلك الطبيبَ الدوّارَ بطبّه على الجميع حتى أبرأ الله عِلَلَهم وأسقامَهم.

---

(١) الحجرات: الآية ١٠.

جبل لا ينحني!

تعرّض السيّد عباس، في حياته لكثير من المخاطر، فلم يكن يحسب لأعظمها حسابًا... امتلأ قلبه من خشية الله، فلم يعد يخشى مع الله شيئًا آخر... لقد كان ـ بحسب تعبير الشيخ أحمد علي الشيخ ـ جبلًا شامخًا عظيمًا يأبى الإنحناء!

كثيرةً كانت العواصفُ التي حاولتْ أن تزعزعَ إرادةَ السيّد وتفرضَ عليه مواقفَ تأباها كرامةُ الأمّة ومصلحتُها...

قال غازي كنعان، ذات يوم:

ـ إنّي أقرعُ أبوابَ الضاحية!

فأجابه السيّد عباس:

ـ الضاحية لا يدخلها جبّار إلّا وقسَمَه قاسِمُ الجبّارين!.

وتأزّمت العلاقاتُ بين الطرفين... بعد ذلك، لطّفت القيادة السورية الأجواء، لأنّها كانت تنظر بعين استراتيجيّة إلى ضرورة المقاومة الإسلامية في لبنان، وضرورةِ تعزيزِها في وجه إسرائيل وأطماعِها وأطماعِ أميركا في المنطقة.

فلانَتِ المواقف، وهدأَ التحدّي... ولكنْ ظلّت الأمور متوتّرة

مع السيّد عبّاس الذي بقي متأثّرًا من تلك العبارة.

لذا طلب عبد الحليم خدّام لقاء السيّد، فراح الأخوان يضغطون عليه للجلوس معه، حتى قَبِل... فجاء مباشرةً من مواقع القتال في الجنوب وهو ينتعل حذاءً معفّرًا بالتراب، ويرفع الجوارب فوق «البيجاما» البيضاء... وجلس مع «خدّام» الذي ـ بدَلَ أن ينظر إلى السيّد ـ راح ينظر إلى حذائه، بحسب ما يروي خليل محمد الموسوي. والسيد لا يخجل لأنه كان قادمًا لتوّه من الجبهة! وهو أصلًا، غايةٌ في الشفافية والزهد. ومن يومها، والعلاقات- بحمد الله- سمن وعسل!

أمّا مع الأعداء فقد كان السيّد أسداً يقتحم الأخطار ولا يبالي، أوقَعَ على الموت، أم وقع الموت عليه... فهذه خليقة من خلائق أهله، أهل البيت عليهم السلام.

كان ذات صباح، متوجّهاً في ركب من عدّة سيّارات لحضور الإحتفال السنوي بذكرى الشهيد الشيخ راغب حرب (رضوان الله عليه). فوَصل الوفد ـ بحسب رواية الشيخ حاتم أبو ديّة ـ إلى حاجز إسرائيلي... مرّت سيّارة السيّد أوّلًا، وأُوقِفَتِ السيّارة الثانية التي كان فيها بعض الإخوان من رجال الدين. والسبب أنّ أحد المشايخ كان معه كتاب يحمل صورة لنجمة داوُد السداسيَّة وهي تَذبح حمامة!. فاستشاط الإسرائيلي غضبًا لهذه الصورة التي تعني أنّ إسرائيل هي

عدوّة الحرّية والإنسانية والسلام... وأُوقِفَ الوفد.

رفض السيّد عبّاس أن يتابع وحده لحضور المهرجان. فعاد إلى الحاجز. وترجّل من السيارة مُتقدّماً بغضب من الجندي الإسرائيلي، وسأله:

ـ لماذا تُوقف الوفد العلمائي!! وبأيِّ حقّ؟!.

تراجع الجندي أمام تقدّم السيّد وغضبه، وراح من خوفه يُطلق النار فوق رأس السيّد لعلّه يُخيفه فيبتعد عنه... والسيّد يتقدّم نحوه ويدفعه في صدره ويتحدّاه قائلًا:

ـ أطلق النار على صدري إن كنتَ رجلًا!!...

فسمع الضابط إطلاق النار، فخرج من مكتبه مستنفَرًا.. ولمّا عرف حيثيّات المشكل، قال:

ـ الموكب كلّه يمرّ، ما عدا هذا الذي يلبس عِمامةً سوداء... فيعود من حيث أتى.

يومها، عاد الموكب جميعاً، من غير أن يحضر الإحتفال. وطبيعيٌّ أنّ الإسرائيليّين لم يكونوا يعرفون، بعد، موقع السيّد عبّاس من الحزب. وإلاّ لما كانوا ضيّعوا هذا الصّيد الثمين!

وللسّائل أن يسأل: أنّى للسيّد عبّاس تلك الشجاعة، وذلك الإطمئنان؟ أليس إنسانًا طبيعيًّا من لحم ودم وأعصاب؟! فكيف

انتظمت في شخصيّته تلك الصفات المعجزة؟!. وللإجابة عن هذا السؤال نطرح سؤالاً آخر: أغريبٌ على سليل أهل البيت عليهم السلام أن يتحلّى بهذه الصّفات المُعْجِبَة، وهو من معدِنها وجوهرها الأصيل؟! ألم ينم جدّه الإمام علي عليه السلام ـ وهو فتى يافع ـ في فِراش الرسول صلى الله عليه وآله فداءً له وللإسلام، يوم هجمت قريش وممثّلو كلّ القبائل، لقتله صلّى الله عليه وآله؟!. ويومها قالت قريش، وقد صَعَقها المشهد:

ما هذا؟. الفتى عليٌّ ينام في فراش محمد ويضحّي بنفسه من أجله ونصرة دينه!. أيُّ دِينٍ هو هذا؟!.

ألم يقف الحسين عليه السلام أمام جيش يزيد متحدّياً قائلًا:

هيهات منّا الذلّة!... وإذا كان دين محمد لم يستقم إلاّ بقتلي، فيا سيوف خذيني!.

وما بالُنا نعود كثيرًا إلى الوراء، وها هو السيّد محمد باقر الصّدر (رضوان الله عليه) يردُّ على من نصحَهُ بالذهاب إلى إيران خوفًا من بطش النظام الصدّامي قائلاً:

«إذا كان الإسلام يحتاج إلى دمي، فباسم الله!».

وبعدُ، فهذا الصحافي المصري الأستاذ محمد حسنين هيكل يروي تجرِبتَه مع الإمام الخميني قدس سره، فيقول:

عندما كنّا في الطائرة مع الإمام الخميني في طريقنا إلى

طهران، أثناء عودة الإمام من منفاه في فرنسا، كنّا خائفين من أن يطلق علينا طيران الشاه صاروخًا لإسقاط طائرتنا. أمّا الخميني فكان نائمًا مطمئنًّا. فلمّا سألتُه مستغربًا:

ـ نحن خائفون، و أنت نائم؟!

أجابني بسكينةٍ و هدوء:

ـ لو ازدادت نبضات قلبي نبضةً واحدة لشكَكْتُ في إخلاصي لله عزّ و جَلّ!

أمّا النبيُّ ﷺ ـ والختام مِسْكٌ كما البَدْء ـ فيكفي للتدليل على شجاعته المثاليّة أن نذْكُرَ ما قاله فيه إمام الهدى و الجهاد: «**لقد رأيتُنا، يوم بدر، و نحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربُنا إلى العدوّ، وهو أشدُّنا ـ يومئذٍ ـ بأسًا!**».

فكيف للشجاعة، إذًا، أن تخطئ السيّد عبّاس وقد ورَثَها كابرًا عن كابر؟!

وأمّا اطمئنانُ سماحته فمردُّه إلى أنّه كان يعملُ في ما يرضي الله سبحانه، وينظر إلى العمل وإتقانه كما يحبُّ الله ورسولُه، لا إلى النتائج...

تروي السيّدة هدى الموسوي قائلة:

(لمّا جاء خبر استشهاد الشهيد محمد بجيجي أصرّ السيّد

عبّاس على الذهاب إلى مكان استشهاده الذي يُعتبر محوراً للأخوة المجاهدين، رغم الخطر المحيط بالمنطقة.

حتى مناسبة يوم القدس كان يحضرها في بلدة مشغرة، منطقة البقاع الغربي، رغم أنّها قريبة جدّاً من المواقع الإسرائيلية.

أَذْكُرُ وقت احتلال ثكنة الشيخ عبد الله، وقد كنت ضمن النساء اللاتي مشَيْنَ في المسيرة المتوجِّهة إلى الثكنة، أنّ أحد الأخوة تعرّض للعسكريّين بكلامٍ نابٍ يسيء إليهم. فلم يقبل السيّد بهذا التصرّف، وأهان ذلك الشابّ على تصرّفه معتبرًا أنَّ هؤلاء العسكريين هم أبناؤنا. فتفاجأ العسكريّون بالموقف العادل للسيد ﷺ، وعدم تحيّزه للأشخاص الذين معه. وبهذا فقد فرض حالة من الإحترام والخجل بين الفريقين).

أمّا الشيخ عزّات حيدر فيقولُ:

(عندما كنّا نتعلَّم في حوزة الإمام المنتظر ﷺ كنت من ضمن المجموعة التي يدرّسها السيّد عباس(رضوان الله عليه). وذات مرّة كان الطيران الفرنسي «superatendar» يُلقي الصواريخ على بعلبك، وكنّا يومها، داخل الحوزة. فقرّر عدد من العلماء أن يوقفوا التعليم، في الحوزة، ريثما ينتهي القصف، وطلبوا إلينا أن نُقنعَ السيّد بهذا الموضوع.

وإذ بالطيران يحلّق على علوّ منخفض جدًّا فوق مبنى الحوزة، فهربنا جميعًا منها.

وبعد أن غادر الطيران الفرنسي عدنا إلى الحوزة لنفاجَأ بالسيد عبّاس جالسًا ينتظرنا. وإذا به يقول لنا:

«شو؟!.. يا عيب الشوم... خايفين؟!».

فلمّا أخبرناه بما دار بيننا من حديث، قال:

«لا، أنتم تريدون أن نترك منطقة بعلبك... تريدون أن يقول أهل بعلبك إنَّ العلماء غادروا...»

ثمّ ختم سماحته بكلام حازم ترك فينا أبلغ الأثر حين قال:

«إذا نحن غادرنا، من سيبقى، حينها، في المنطقة؟. بالتأكيد الكلُّ سيغادر... ثمّ هل هناك أجمل من أن نكون نتعلّم في الصفّ، فيأتي الطيران ويقصف علينا، فنموت ويختلط دمنا بلحمنا، ونحن ندرس فقه الإمام الصادق عليه السلام؟. هل هناك أجمل من هكذا مشهد؟!».

هذا دليل على عمق الإطمئنان عند سماحته، وعلى روح القيادة الحقّة. فإذا كان القائد العالِم مثالاً للهروب. فما هي مقوِّمات الصمود عند عامَّة الناس؟.

وفعلاً، لقد بقيت مجموعتنا وحدها، تكمّل درسها في ظلّ تلك الظروف الخطيرة. فقد كان الطيران الحربي يقوم بغارات، وكنّا، عند

كلّ غارة، نخرج من الحوزة ثمّ نعود إليها فور انتهاء الغارة، لنتابع الدرس، كأنَّ شيئًا لم يكن.

أمَّا في ما خصّ السيّد عباس ـ يتابع الشيخ عزّات حيدر ـ فأذكر ذات مرّة أنَّ الطائرات راحت تنفّذ غارات مخيفة، فرُحنا نستعدُّ لمغادرة الحوزة. وبينما كنت أغادر، وجدت السيّد عبّاس يبحث عن حذائه على أقلِّ من مهله... فلمّا وجده أخذ ينتعله بهدوء المؤمن المطمئنّ. ثمّ خطا به خطوات متهادية في مشيه، كأنَّ تلك الغارات بأصواتها القويّة جدًّا والمرعبة، هي اللّاشيء أمامه!.

لا زلت أذكر هذا المشهد متعجّباً من هذه الطمأنينة المتناهية، وهذه الشجاعة التي لا حدود لها، وعدم الخوف.

إنّ السيّد عباس، باختصار، فيه كلّ الخصال التي إنِ اجتمعت في شخص، تؤهّله لأنّ يكون قائدًا رساليًّا وعلى مستوى القضيّة).

خلال الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ نظر الشباب المرافقون للسيد عبّاس (رضوان الله عليه) إلى البحر المتوسّط فرأوا قوّات الحلف الأطلسي تزرع مياهه بالبوارج والسفن الحربيّة وحاملات الطائرات والمدمِّرات مثل «نيو جرسي»... فقالوا له:

ـ انظر، يا سيِّد!... كيف سنقاوم كلّ هؤلاء، ومعهم كلّ هذه الأسلحة المدمّرة... ونحن ماذا معنا ؟!...

فأجابهم بكلّ طمأنينة وهدوء:

ـ إنها قِطَعٌ من الحديد، لا أكثر ولا أقلّ... فلا تدَعوها تؤثّر في نفوسكم... إنّ قدرة الله فوق قدرتهم... ولا يغيبنَّ عن بالكم، لحظةً واحدة، أنَّ الله معنا!!.

وإذا لم يكن مِن عجبٍ في أنَّ السيّد عبّاس كان شجاعاً في مواقفه كلّها، صلب الإرادة، تنحني الجبال الرواسي ولا ينحني، فذلك لأنه اتخذ من التكليف الإلهي مرجعيّته، وسلك في خطاه على هذا الأساس المتين، فإذا هو أبيُّ الضَّيْم لا يجعل في أيٍّ أمر دنيوي مُقايضةً بما يمسُّ الدين أو مصالح الأمّة.

ولكنّ العَجَبَ كلّ العَجبِ هو في تلك الطاقة الجسديّة الغريبة التي مكّنته من تجنيد الجسد لمهامِّ الروح!... حتى لقد قال مرافقوه وإخوانه: ـ كُنَّا أمام إرهاقه وشدّة تحمّله ننسى تعبنا.... أمَّا إذا تملّكَنا النَّصَبُ وطلبنا الجلوس لنرتاح، فكُنَّا نخجل من أنفسنا إزاء صلابة السيّد وهمّته العالية!...

قال يومًا لخليل الموسوي:

ـ لا تؤاخذني، فأنا لا أستطيع الجلوس جيّدًا. (ويقصد أنه لا يستطيع أن يجلس بانحناء، كعادته دائمًا في التواضع).

فسأله خليل:

ـ لماذا؟.

ـ لأنني كنت أنتعلُ حذاء «بلاستيك» لئلّا يُحدث صوتًا في الموقع الخطر. فزلّت قدمي وسقطتُ من شاهِقٍ إلى أسفل الجبل... وأنا أشعر الآن بأنَّ شيئاً تمزّق في جسدي.... أعصاب، تمزُّق عضل.... فصدري كلّه يؤلمني.

ـ ولم لا تستدعي طبيبًا؟!.

ـ لا ضرورة لذلك...

لكنّ الشباب أَتَوْه بطبيب، رغماً عنه. فطلب أن تُجْرَى للسيد فحوصات... فرفض السيّد إجراءها قائلاً: لست بحاجة إليها... ما بقا تحرز!.

هكذا كان يستهين بنفسه... هكذا كان يُشقي روحه، ويَشُقُّ على جسده.... فهل تُراه كان يستهين بإخوانه ومرافقيه؟... هذا هو صديقه الشيخ عبد الكريم عبيد يخبرنا بالجواب الفصل:

لم يكن السيّد عباس (رضوان الله عليه) يهتمّ بنفسه أو بصحّته، أمَّا المجاهدون فصحّتهم مهمّةٌ جدًّا عنده، يأخذهم إلى الأطبَّاء والمستشفيات، ويسهر على صحَّتهم وراحتهم... وإذا سئل: «لماذا لا تستدعي طبيباً لنفسك؟!». يجيب: «هذه الحياة زائلة!».

وهنا، قد يسارع البعض إلى القول: لعلّ السيّد كان يأكل جيّداً،

وينام جيّداً ويتّبع القواعد الصحّية التي مكّنته من تغذية هذه الطاقة الجسديّة المثالية.

أما النوم فيؤكّد مرافقوه وأهله بأنه لم يَنَلْ منه سوى ساعتين أو ثلاث ساعات يوميّاً!... وعندما كان يُسأل عن سبب ذلك يكون الردّ دائماً، بحسب ما يروي مرافقه حسين الشامي: «لاحقين ننام... رح نام نومة طويلة!».

إنَّ ليل الناس للنوم والراحة... أمّا ليلُه فللسهر والعبادة... وكان لسماحته تعبير طريف، فقد سمّى النوم «سارق الأعمار»!.

وأمّا الطعام فلم يكن حظّه منه بأفضل من حظّه من النوم... فها هو الشيخ عدنان الربيعي يقول إنَّ الفطور الصباحي للسيد كان في العاشرة ليلاً!.

ويروي الشيخ علي فرحات أنَّ السيّد دعاه، يومًا، إلى تناول طعام الغداء في بيته. فوضع صحن لبنة وعدّة حبّات زيتون. فتعجّب الشيخ من ذلك قائلًا:

ـ لبنة وزيتون على الغداء، يا سيّد؟!.

فأجابه:

ـ يا شيخ علي، هو زادُ الدنيا... لقمتان!...

ولَمّا سأله، ذات يوم، مرافقه فيّاض خير الدين: «لمَ لَمْ تأكل،

بعد، يا سيد؟» أجابه: «أنا أبقى جائعًا لأنّ الأخوة في المواقع يكونون جائعين».

وتقول أخته السيّدة ليلى الموسوي إنّه اعترف مرّة، لزوجته السيّدة أمّ ياسر بأنه بقي ثلاثة أيّام بلا طعام!.

وفي آخر سِنِي حياته الشريفة اشترك في مسيرة عاشوراء للمرّةالأخيرة، وهو حافي القدمين، والطقسُ شديدُ الحرارة... حتى تورّمت قدماه وتشقَّقتا... وفي قدمه إصابةٌ قديمة.... فوضعَتْ زوجتُه قدميه في وعاء، وراحت تغسِلُهما وتُزيل الأوساخ عنهما، وتمسح الدم النازف... وهو يتألَّم بصمت، ويبتسم...

أيّةُ طاقةٍ روحيّة وجسديّة وضَعْتَها، في هذا الإنسان، يا ألله؟!.

في خطى «أبي تراب» عليه السلام

«دنيا يا دنيا، إليكِ عنيّ! أبي تَعَرَّضْتِ؟ أم إليّ تشوّقْتِ؟. لا حانَ حينُك. هيهات، غُرّي غيري... لا حاجةَ لي فيكِ... فقد طلّقتُكِ ثلاثًا لا رجعةَ فيها. فعيشُكِ قصير، وخطرُكِ يسير وأملُكِ حقير. آه من قلّة الزاد، وطول الطريق، وعظيم المورد!».

ذلك هو نهج الإمام عليّ عليه السلام في الزهد وذمّ الدنيا... حتى لقد تعجّبَ من زهده محبّوه ومخالفوه، فقال الخليفةُ الأموي عمر ابن عبد العزيز:

«أزهدُ الناس في الدنيا، عليّ بن أبي طالب». وقال، حديثًا، الأديب المصري عبّاس محمود العقّاد: «لم يُعرَفْ أحد من الخلفاء مَنْ هو أزهد منه في لذّة دنيا أو سَيْبِ[1] دولة. وكان، وهو أمير المؤمنين، يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها...».

وعلى هذا النهج العلَويّ المحمديّ الأصيل سار أهل البيت عليهم السلام جميعًا بلا استثناء فلم يَشُذَّ خَلَفٌ عن سَلَف، أو غرّد

(١) السَّيْب: العطاء، المال.

منهم طائرٌ خارج سِرْبِه. فكبيرهم كان في الزهد قُطْبًا، وصغيرُهم هَدَرَ فيه سَقْبًا(١) وطار شَكيرًا(٢)، بحسب تعبير أمير البيان. وهذا هو العَجَبُ العُجاب في تاريخ السلالات البشرية قاطبةً!.

وعلى هذا النهج المبارك جرى السيّد عبّاس (رضوان الله عليه)، وهو سليل هذه العِتْرَةِ الطاهرة، يَسْتَقي منها شمائله كما يُستقَى النورُ من النور!...

لقد كانﷺ يشعر دائمًا بحضور الله، وأنّى يتوجّهْ يَعِشْ في رحاب الإيمان... وكان سماحته مع القرآن مَهْديًّا وهاديًا، يلازمه المصحَفُ كظلّه تحت شمس الظهيرة... ألهذا شبّهه أخوه السيّد حسن الموسوي بالقرآن، إذ كلّما قرأتَ فيه وجدتَ فيه شيئًا جديدًا؟!..

أمّا صَلاتُه فكانت حقًّا تثير العجب... إذ لم تكن مجرّد أداء لفريضة، أو رفعًا لتكليف... فهذا هو الشيخ حسان عبد الله ـ وهو منه قريب قريب ـ يقول إنَّ الصلاة والدعاء، لدى سماحته، يَصِلان إلى أعماق الروح... وكذا الشيخ حسن حلال يعبّر عن المعنى نفسه بقوله إنَّ الصلاة والدعاء يصلان لدى سماحته، إلى حيثُ عُروجُ الروح!.

---

(١) السقب: ولدُ الناقة ساعة يولد.
(٢) الشَّكير: صغير الطير في الزّغب.

وما لَنا نبتعد عن بيته فلا نسمع زوجته السيّدة أمّ ياسر تقول:

ـ عندما يدعو دعاءَ الحزين، باكيًا متضرّعًا: «**أُناجيكَ يا موجودًا في كلّ مكان...**»، أشعر بأنّ الملائكة تصعد وتنزل في الغرفة التي يصلّي فيها!

وكان سماحتُه يُسِرُّ النجوى إلى مَنْ حولَه من الثّقات، بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقف أمامه ويؤاسيه على حياته الشقيّة... ويكادُ يسمع صوته الشريف مطيّبًا خاطره ومُطَمْئنًا: صبرًا أبا ياسر، فإنَّ موعدَكم الجنّة!.

وللسائل أن يسأل: لماذا كان السيّد يُضَيّق على نفسه وأسرته وأهله ويُسْرِفُ في الضيق، وقد أوسع الله عليه إذ فرض له نصيبًا في الخُمس والحقوق الشرعيّة ؟!. ولعلّ الجواب الشافي: لم يكن يحتمل أن يَشبعَ وغيرُه جائع... فكيفَ يستطيعُ النومَ والفقراءُ يتألَّمون من مرضٍ أوجوع ؟!.

لقد كانت لديه كنزة واحدة لا غَيْر، يلبَسُها ويغسلها، ثمّ يلبسها ويغسلها... حتى خَلَقَتْ[1]... وهي التي لَزِمَتْه باليةً حتى الاستشهاد... ولمّا سئل عن سبب ذلك أجاب: «لي أُسوةٌ بالفقراء والمجاهدين الصابرين الذين يتحمّلون البرد والصقيع في المغاور والكهوف».

(١) خَلَقَتْ: بَلِيَتْ

بالرغم من محبّته واحترامه لزوجته ومحاولته التخفيف عنها نظرًا لمتاعبها العائليّة، فقد كان يتصرّف إزاءها بعكس ما يرغب ويشتهي، فيقوم بما يعود عليها بمزيد من التعب والإرهاق بسببِ كثرة ضيوفه وإخوانه ومرافقيه... لقد أُهدِيَ يومًا آلةً حديثة لتنظيف البيت، فباعها وقدّم ثمنها دعماً للمقاومة!.

قالوا له ذات يوم: يا سيّد، إنَّ برّادك هذا أصبح «خُرْدَة»، لا يبرّد في الصيف ولا ينفع في الشتاء...

فطلب إلى مرافقه أحمد مقلّد أن يأتي بشخص لإصلاح البرّاد. فدخل المرافق إلى المطبخ ليرى ما به، فوجده مخلّعًا لا يصلح... عندئذ قال له:

ـ يا سيد، هذا البرّاد غير صالح ولا يمكن إصلاحه، فلا بدّ من تغييره.

لكنّ السيّد رفض شراء بديلٍ منه قائلًا:

ـ لا بأس، إتّكِلْ على الله، واتركه كما هو!.

وكان سماحته يَخْصِفُ[1] نعليه، فيدقّ مسماراً في حذائه القديم البالي. وإذا قالوا له: «اذهب واشتر غيره»، لم يكن يبالي... لكنّه كان يحافظ عليه نظيفًا، إلّا إذا كان قادمًا من مواقع

(١) يخصِفُ نعليه: يُصلحُهُما بيده.

البطولة والفداء، وعليه غبارُ الجهاد المقدّس!.

أمّا عباءته الشريفة فكانت جيّدة يلبسها أمام الناس... وأمّا جُبَّتُه التي كان يرتديها تحت العباءة فيشهد حبيب الحسيني بأنّها كانت بالية ومرقّعة!. ألا يذكّرنا السيد، هنا، بجدّه الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله الناس عن ثوبيّه الخشن والناعم، فقال: هذا الثوب لي (مشيرًا إلى الخشن) والآخر لكم؟!.

في أحد الأيام أُهديَ السيّد قطعة أرض لعلَّه يبني عليها غرفتين تُؤيان عياله، فتبرّع بها لعالم محتاج... لقد كان يبني منازل للمجاهدين والمحتاجين وبيتُه بالإيجار. فلمَّا سأله أولادُه:

- لِمَ لا تبني لنا بيتًا نعيش فيه كبقيّة الناس؟!.

أجابهم بابتسامته المعهودة ووجهه الذي يطفح بِشْرًا ورضًا:

- نحن الآن، نبني منزلًا في الجنّة !.

أمّا أثاث منزله وطريقة حياته فيه فنترك لأخته السيّدة هدى الموسوي أن تحدّث عنهما :

تميّز سماحة السيّد عبّاس بشخصّيته المتواضعة والبساطة في العيش، إذ لم يأخذ منزلُه طابعَ الرفاهيّة، بل كان أثاثه المنزلي متواضعًا جدًّا إلى درجة أنه كان يدعَمُ السرير بحجارة «الباطون» جرّاء التكسّرات الحاصلة فيه!. حتى فناجين القهوة التي كانت تُقدَّم

للضيافة لم تكن أبدًا متشابهة.

أمّا بساطته في المأكل والمشرب فقد كانت لافتة إذ لم يكن يضع على المائدة أكثر من نوع واحد من الطعام. كان رضوان الله عليه زاهدًا في هذه الدنيا، ويشجّعنا على الزهد. كما كان يحدّثنا بحديث رسول الله ﷺ:

«اللهمّ أرزقني صحبة الفقراء، وأَعِنّي على صحبتهم».

ويقولُ صاحبُه الشيخ عزّات حيدر:

(كان سماحة السيّد عبّاس يعيش على قدر من التواضع والزهد في الدنيا قلّ نظيره... ولقد بلغ من اهتمامه بالآخَرين على حساب نفسه وأسرته، أنّه كان (رضوان الله عليه) يترك زوجته،أحيانًا، بلا مصروف... وكانت تقوم بواجبات الضيافة للمرافقين والمجاهدين والضيوف، فلا يبقى لديها طعام. ولكنّها لم تكن تتذمّر أبداً، بل كانت راضية قانعة... ومقتنعة بأنَّ للسيد أُسْوَةً بأهل البيت عليهم السلام، وأنَّ لديه حُسنَ ظنّ بالله أنه سبحانه لا يتركه أبداً، وسيعوّض عليه، ويجزيه الجزاء الأوفى).

فلِلّه هذا الرجل!. يؤثّثُ بيوتًا للآخرين، وبيته فارغ!. وكلّ من كان يزوره في بيته، يقول: كنّا نسقط في المقعد إذا جلسنا، كأننا نجلس على خشب مهترىء... فلمّا غيّرَتْ زوجته «الصالون»

لاستقبال الضيوف، فاشترته مستعمَلًا وبالتقسيط، اعترض عليها السيّد قائلًا: طرّاحتين وسجّادة ووردة طبيعية، أهمّ من أيّ أثاث في هذه الدنيا!.

عندما أراد الأخوة في حزب الله أن يشتروا من الحاجّ يوسف عواضة ستّ شقق في بنايته، في بعلبك، شقّة للشيخ محمد خاتون، وشقّة للحرس، وشقّتين للحوزة الدينية وشقة للسيد عباس... قَبِلَ الحاج يوسف، ولكنه قبض ثمن خمس شقق، فحسب، ورفض أن يأخذ ثمن شقّة السيّد عباس!. فما كان من السيّد إلّا أن اعتذر عن قبول الشقّة، شاكراً للحاجّ حُسْنَ كرمه... وأصرّ على أن يبقى ساكنًا بالإيجار!. ثمّ عُرِفَ، بعدُ، أنّ الحاجّ عواضة كتب الشقّة باسم السيّد خِفْيَةً عنه!...

كثيرون من الناس لا يملكون مالًا، في هذه الدنيا،ولا عَقارًا، ويُقتّرون على أنفسهم في النفقة عن خَصاصَة وفقر... فيقول عنهم الآخرون إنّهم زاهدون في هذه الدنيا. فهل هذا حقًّا زهد؟ أو قُصور ذات اليد؟.

الزهد الحقيقيّ هو أن تمتلكَ الشيءَ، وتزهدَ فيه. فليس الزهد ألاّ تملك شيئاً... بل الزهد ألاّ يملكَكَ شيء. وهو ما يعبّر عنه المتصوّفة بقولهم: «الزهد هو خُلُوُّ النفس ممّا خَلَتْ منه اليدان».

هكذا كان «أبو تراب» عليّ عليه السلام إذ أبى أن يسكن في القصر الأبيض في الكوفة إيثارًا للخِصاصِ[١] التي يسكنها الفقراءُ.

هذا ما يرويه عبّاس محمود العقاد في عبقرياته الإسلاميّة، ويتابع:

«قال هارون بن عنزة عن أبيه: دخلتُ على عليّ بالخَوَرْنَق[٢]، وهو فصل شتاء، وعليه خَلَقٌ[٣] قطيفة[٤]، وهو يَرْعَدُ[٥] فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ الله جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبًا، وأنت تفعلُ هذا بنفسك؟

فقال: والله ما أَرْزَأُكُم[٦] شيئًا. وما هي إلّا قطيفتي التي أَخرجْتُها من المدينة».

هذا هو الزهد، وهذا هو إمام الزهد!. فهل تيقّناً، أنَّ السيّد عبّاس كان زاهداً، حتى نقول إنَّه في خطى «أبي تراب» عليه السلام؟.

لقد رأينا حتى الآن، استهانته بنفسه وصحّته، ورأينا خَصْفَه نعليه، ورأينا جبّته البالية المرقّعة، يسترها بعباءة للناس... فَلْننظرْ

---

(١) الخِصاص: مفردها الخُصّ، وهو البيتُ من القصب أو أغصان الشجر.
(٢) الخورنق: قصر قرب النجف، كان لبني ساسان.
(٣) ثوبٌ خَلَقٌ: بالٍ.
(٤) القطيفة: نوع من الدثار (الثياب).
(٥) يرعد: يضطربِ ويرتجف من البرد.
(٦) ما أزرأكم: ما أُصيبُ منكم خيرًا، ولا آخذ من مالكم شيئًا.

قليلًا إلى إدامه[1] وطعامه.

ذهب يومًا في رحلة عائليّة نادرة مع الشيخ أحمد علي الشيخ وأسرته، إلى نهر «يحفوفا»، فنزع عِمامته، ووضع عنه عباءته، ثمّ راح يلعب مع الأولاد... وعند الغداء وضع كُلٌّ ما أحضر من الطيّبات... أمّا السيّد فوضع في صحنه بعض الكشك، وأضاف إليه شيئًا من الماء وراح يمزجه... ثمّ طلب إلى الشيخ أن يُشاركه في طعامه الفاخر!.

كان أهله مدعوّين عنده على «مأدبة»... فإذا الطعام برغل على بندورة... وهو الطعام الذي ظلّ بُخارُه يحتلُّ فضاء المنزل حتى استشهاده!.فلمّا تذوّقه السيّد وجد فيه حَرًّا. فلم يعترض على زوجته مع علمها بأنه يعاني من حساسية في المعدة... فأكل يومها، عدّة حبات من الزيتون مع قطعة بندورة، وحمد ربّه على نعمته، بحسب رواية من حضر هذه المأدبة.

وهذا هو الشيخ حاتم أبو ديّة يُدلي بدَلْوِه في الحديث عن السيّد فيقول: كنت يومًا عنده، فاستبقاني على العشاء... وإذا بالسيّدة أُمّ ياسر تتغيّر معالم وجهها. فكلّمَتْه على انفراد. فعاد إليّ مبتسمًا وهو يقول: نصيبُكَ في الجنّة، لا يوجد عندنا طعام ولا خبز... سوى هذا الفُتات من الكعك، فتوكّلْ على الله وتناوَلْه معي.

(١) الإدام: ما يوضع في الخبز ليُطيّبه.

وتعترف زوجته أمام أقربائها بأنَّ السيّد كثيراً ما كان يبقى من دون فطور ودون غداء. وفي المساء يكتفي بقطعة خبز محمّص، ويشكر الله على نَعْمائه!.

أمّا مرافقوه فيقولون إنَّ سماحته كان يأكل من مطبخ المرافقة المتواضع، ولم يكن يمدُّ يده إلَّا إلى الطبق الذي أمامه مباشرة، وهو ما أكّدَتْه أخته السيّدة هناء الموسوي.

ويتابع مرافقوه: إذا حضر السيّد متأخّرًا، ولم يَبْقَ طعام ليأكله، كان يأكل الفضلات المتبقّيَة، فنعترض على ما يفعل ونقول له:

- يا سيد، نذهب ونأتيك بفرّوج مشوي، أو أيّ طعام جاهز.

فيقول:

- لا، اجلسوا اجلسوا... كلُّه نعمة!.

ويسألونه كلّ صباح: ماذا سنأكل اليوم يا مولانا؟. (يسألونه لعلّه يغيّر لهم صنف الطعام المعهود). فيجيبهم بقوله: «النشيد الوطني اللبناني»، وهو يقصد «الطبق اليومي» أو الطعام الوطني: لبنة وزيتون وشاي. فيبتسمون ويأكلون الطعام ذاته يوميّاً.

فهل كان السيّد يقصد بعبارة «النشيد الوطني اللبناني» الألوان الثلاثة: الأبيض (لبنة)، والأخضر (زيتون)، والأحمر (شاي)، وهي

ألوان العلم اللبناني؟!. نحن لا ندري على وجه اليقين. ولئن كان يقصد ذلك بدون أن يصرّح به، لكانت منه بحقّ، لفتةً ذكيَّة وتوريةً ناجحة... وكيف دارَ الأمرُ فليس الذكاء ولا التورية أو التكنية بغريبة عن سماحته.

هذا في لبنان، فماذا في إيران؟. لعلّ الأمر هناك مختلف، فثَمَّ فنادقُ فخمة ومطاعم درجة أولى، ومآدب عامرة للضيوف... فما كان إدام السيّد هناك؟.

لقد كانت «فواتير» الطعام مُكْتَنِزَةً للضيوف الذين يذهبون من لبنان أو سوريا أو سواهما من البلدان. أمّا فاتورة طعام السيّد فلم تكن تتضمّن ـ بحسب اعتراف المسؤولين الإيرانيّين ـ سوى حساء البصل!. وهذا ما تؤكّده أخته السيّدة ليلى الموسوي.

حساء البصل يا سيّد؟!. تذهب من لبنان إلى إيران فتُجهِدُ نفسك في الاجتماعات والمتابعات والزيارات...ثمّ تتناول في الفندق حساء البصل، حتى تُوَفِّرَعلى الجمهوريّة الإسلامية؟!.

أيُّ عرفان هو هذا؟!. وأيُّ وفاء؟!.

ولعلّ القارىء يسأل: هذا هو شأن السيّد عبّاس مع الطعام وطيّبات العيش... فما هو شأن أُسْرته؟

ونحن بدورنا، نسأل: إذا كان السيّد لا يأخذ سهم إمام ولا سهم سادة، بل يعتاش من راتبه الذي يذهب معظمُه صدَقةً، ثمّ يستدين في اليوم العاشر من كلّ شهر، فكيف يكون مصير زوجه وأولاده؟!. ألم ير الكثيرون السيّدة أُم ياسر وهي تشتري الثياب لأولادها من البالة؟!. ولم تكن تخجل لكونها زوجة الأمين العامّ لحزب الله!..

أَلَمْ يأكل ياسر وأخته سميّة شطيرتين[1] رقيقتين، ففتحهما عمُّهما السيّد حسن الموسوي ليرى فيهما ملحًا وزيتًا؟!.

ثمّ، أَلَمْ يتكرَّر هذا المشهد المحزن مع ياسر؟ إذ رآه مسؤول المرافقةوهو يأكل شطيرة رقيقة، فسأله:

ـ ماذا تأكل يا ياسر؟.

فلم يجبه، بل قدّم له الشطيرة ليرى بنفسه، ففتحها المرافق ليرى بعض السكر والماء!... فلمّا سأله:

ـ لماذا تأكل هذا الطعام؟

أجاب:

ـ ليس في بيتنا طعام غيره!...

عندما كان السيّد يمرض كان يُكابر ويتجلّد، ويُسرِفُ على نفسه في المكابدة والصبر... إلى أن يرهقه المرض ويطرحه في الفراش.

(١) الشطيرة: السندويش.

وذات يوم حضر أحد الصحافيّين ليعودَه[1] في مرضه، فوجده راقدًا في السرير. نظر الصحافي فأنكر ذلك الشرشف العتيق، وارتاب بما تحته... وما كشفه حتى رأى حجارة «الباطون»، وقد مُدَّ فوقها لوحٌ خشبيّ ينام عليه السيّد !. فما مَلَكَ أن قال: «هذا أمين عامّ حزب الله؟!». ثمّ انتحى جانبًا لئلّا يراه أحد وهو يبكي!.

غريبٌ أمرُ هذا الرجل... أَبَيْنَهُ وبين المال سُوء تفاهم دائم؟!. أم تُراها حالة عداء مزمنة؟!. أم أنَّ سماحته...

عَـلا، فما يستقرُّ المـالُ في يدِهِ

وكيف تُمسِكُ ماءَ قُنَّةُ[2] الجبلِ؟!

كان أخوه السيّد حسن الموسوي مغتربًا في ألمانيا، وكان تاجرًا ناجحًا... فأرادت ألمانيا أن تشتري النفط الإيراني عبر وسيط تجاري، أو تاجر بالعمولة «commissionnaire marchand»، وبالتعبير اللبناني «كومسيونْجي»، فاتصل السفير الإيراني في برلين بالسيد حسن الموسوي وعرض عليه صفقةً عمولتُها مليون دولار!. وما عليه إلّا أن يذهب إلى لبنان، ويأتي بورقة من السيّد عبّاس تثبت أنه راض عن هذه الصفقة خدمةً لأخيه.

(١) يعودُه: يَزورُه في مرضه، ومنه عيادة الطبيب.
(٢) القُنَّةُ: القِمّة.

فسافر حسن إلى لبنان وقصد السيّد عبّاس في بيروت، فلم يجده، إذ قيل له إنّ السيّد عبّاس في «النبي شيت» فتوجّه إلى البلدة، فلم يجده لأنه كان قد انتقل منها إلى طرابلس. فانتظره... لكنّ السيّد عبّاس توجّه من طرابلس إلى الشام... ولم يعد إلّا بعد منتصف الليل... فوجد أخاه بانتظاره، فسأله مستغربًا: «ما الذي أتى بك من ألمانيا، فهذا ليس موعد زيارتك؟!». أخبره أخوه بأمر الصفقة التجارية التي سيجني منها مبلغًا محترمًا، قدره مليون دولار!. ولا يحتاج الأمر من السيّد إلّا إلى ورقة صغيرة تُقَدَّمُ إلى وزارة التجارة الإيرانية عبرسفير إيران في ألمانيا.

فغضب السيّد وعبَس!. أَلَمْ يقل أحدُ المُقرَّبين إليه، إنّه إذا عبس، فإنّ خطبًا جليلًا قد حدث؟!. ثمّ قال لأخيه:

- أَتعرفُ الطائرة التي أتيت بها؟ عُد بها فوراً من حيث أتيت!.

لماذا لم يهتبل(١) السيّد عبّاس هذه الفرصةَ السانحةَ بين يديه؟. أليس لأنَّ زُهده في هذه الدنيا هو سَجيَّةٌ لديه وفِطرة، وليست شيئًا يتكلّفه، إذ تَجيئُه على البديهة والسليقة كما تجيءُ الطبائعُ من جواهرها؟!.

وبعدُ، أليس لأنّ سماحته فرع كريم من أصل كريم، وهو كأصل سلالته الشريفة خُلِقَ للهداية والجهاد، ولم يُخلَق للتجارة

(١) اهتبل الفرصة: اغتنمها.

والشَّراة، أو للوَساطة والصفقات؟!.

لهذا كلّه ولقصص أُخَر لم نذكُرْها حتى لا تتكسّر النّصال على النّصَال، قال سماحة السيّد حسن نصر الله (دام ظلّه الشريف) للسيّد ياسر:

«لا أحد يستطيع أن يعيش كما عاش السيّد عباس، فقد امتلك قدرة على العيش دون أدنى شيء من مقوّمات الحياة!».

وتبقى حادثة أثيرة تُلحُّ علينا لإيرادها في هذا المقام، وتأبى أن نوفّرها كما وفَّرنا سواها من الحوادث والعِبَر...

كان ياسر فتيًّا ما يزال، فأعطاه والده بعض المال تشجيعاً له لأنه أمضى في موقع «مليتا» عشرة أيّام.

ولمّا عاد إلى المنزل لم يجد طعاماً ليأكل، ولم يكن مع والدته أيّ مبلغ لشراء الطعام. فقال لها:

ـ ما زال معي مائةُ ليرة من المبلغ الذي أعطانيه والدي.

ـ حسناً، يا بنيّ، اذهب واشترِ بها شيئًا...

فذهب إلى السوق، وتقدّم من صاحب عربة خضار، فأعطاه المبلغ قائلًا:

ـ أعطني بمائة ليرة بعض الخضار لتطبخها أُمّي.

فدمعت عينا الرجل، ونظر إلى ياسر، وهو طبعًا لا يعرفه، ثمّ قال له:

ـ أتريدُ خضارًا بمائة ليرة؟!.

فأجابه :

ـ نعم، ليس معي سواها.

فرقّ الرجل لحال الصبيّ، وأعطاه أربع حبّات بطاطا، وثلاث حبّات باذنجان، وعدّة حبّات من الحامض.

ولمّا عاد إلى المنزل حاملًا الخضار، قالت له أُمّه:

ـ كيف أعطاك كلّ هذه الكميّة؟!. لعلّك استعطفتَه!.

فأجابها بقوله:

ـ لا، أبدًا... هو حنّ عليّ، فأعطاني ما تَرَيْن. لقد رأيتُ الدمعة في عينيه.

فَلِلّه !.. السيّد الأمين العامّ لحزب الله... مالىءُ الدنيا جهادًا وخدمات... كفيلُ الأيتام، ومُطعِمُ الجِياع... يحِنُّ على ابنه بائعُ خضار، فيرثي لحاله وتدمعُ له عيناه، ويتصدّقُ عليه ببعض حبّات الخضار؟!. يا ألله!... يا ألله!!...

لطائف وقصص نادرة...

سألْنَا الشيخَ محمد خاتون عن صاحبه وحبيبه سماحة السيّد عباس، وهو به جَدُّ خبير، فأجاب:

ـ أرأيتَ سماءً تمطر حُبًّا ورحمةً ومشاعر؟!.

فكرّرنا عليه السؤال بصيغة جديدة:

ـ لقد أجبتُم بما قلَّ ودلَّ، وهو قليل فيه غَناء[1].. فهلاّ أفضتُم في الإجابة، عافاكم الله.

فابتسم الشيخ ناظرًا إلى البعيد، كأنه يستعيد شريطًا من الذكريات الطيّبة ثمّ قال:

ـ كان السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) ينكسر قلبه للفقراء، ويعمل المستحيل لإقالة عَثَرات الكرام، وجَبْر خواطر المستضعفين... كان يتنفَّس وجع الأمة من فقرها وبؤسها وما يُحاك ضِدَّها من المؤامرات... وإذا سأله السائل مالاً أعطاه كلّ ما في جيبه بدون أن يسأله كم يريد من المال، وما حاجته إليه.. وكم كان يؤلمه أن يُسفَك

(١) الغَناء: النفع، وهو ما يُغنيك عن غيره.

دمٌ بغير حقّ، أو يُقتَلَ مظلوم على الشُّبْهَة!. وكم رأيناه متردّدًا إذا اضطُهِد إنسان على نحو الظنّ!.. أمّا في ما عدا ذلك فكان ثابت القدم والجَنان[١]... كان يبدأ باللّين، ثمّ يتأكّد من الخبر، ثمّ يتشدّد على الظالم!.

وسألْنا أحدَ المجاهدين القادة عن سيّد المجاهدين والقادة، فقال:

ـ مهما تحدَّثْنا عن هذا الرجل فلا يمكننا أن نوفّيه حقّه أبدًا...

ثمّ أفاض في الحديث فأغرَقَ... وحَسْبُنا، ههنا، أن نُثبت بعض نوادر السيّد ولطائفه، فلعلّ فيها رَوَاءً[٢] ونَقْعًا[٣] وشِفاءً للغليل[٤]:

رفض السيّد في إحدى المرّات، أن يعقد قِرانًا لعروسَيْن، لأنّ المهر بلغ مائة ليرة ذهبيّة.

كان هَمُّ سماحته أن يريح الناس، ولو على حساب راحته وأمنه الشخصي. فانزعج بشدّة من مرافقيه، ذات يوم لأنّهم أطلقوا النار في الهواء لإبعاد الناس عن الموكب. ثمّ حدّث الشباب بلباقته الأثيرة قائلًا لهم:

---

(١) الجَنان: القلب.
(٢) الرَّوَاء: الماء العذب الكثير.
(٣) النقْع: قطْع العطش.
(٤) الغليل: حرارة العطش.

ـ إنّ هؤلاء الناس أهلنا وأحبّاؤنا. فإذا لم يكن الواحد منهم مسلمًا كان مسيحيًا، وهو بالنهاية أخ لنا، ولا يمكننا إيذاؤه. فالناس صنفان، كما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخَلْق.

ظَلَّ فياض خير الدين وبقيّة المرافقين أسبوعًا كاملًا، وهم يطلبون إلى السيّد أنّ يصرف لهم ثمن بذلات جديدة لتقيهم من شدّة البرد... فوافق على ذلك. ولكنْ، عندما حضرت البذلات أرسلها إلى المجاهدين في جبل صافي، فهناك البرد القارس والصقيع... وهناك الوفاء والتضحية!..

كان غيره من مشايخ الحزب والمسؤولين يتراجع أمام غضب الناسِ لأيّ سبب. أمّا السيّد عباس قدس سره فكان يقتحم مثل هذه الصعاب غير هَيَّاب، ويقول:

ـ نحن كالطبيب الذي أتى ليداوي جراح الناس... وقد يتأفَّف المريض ويرفض العلاج. ولكنّه بعد يومين يشعر بتحسّن، ويعرف قيمة الطبيب المداوي، فيُقبل عليه شاكرًا راجيًا... لذا علينا أن نتحلّى بالصبر... فصبرًا على مَجامِرِ الكرام!

صدفةً، التقى السيّد ببعض المغتربين اللبنانيّين، ولهم مواقعُ مهمّة في بعض المراكز الأجنبيّة. فجالسهم ساعة، فارتاحوا له، وأعطَوْه

بطاقاتهم العمليَّة قائلين:

ـ لأجلك أنت، نحن وإمكانيَّاتُنا بين يديك في خدمة المقاومة!.

ويروي أحمد علويّة قائلًا:

على غفلة جاءني السيّد في دير الزهراني، ومعه وفد باكستاني، وقال لي:

ـ حضّر الطعام والضيافة.

فأُحرِجْتُ واحترت ماذا أفعل... فلاحظ السيّد ارتباكي، وقال:

ـ أنا ليس معي قرش، فتوكّل على الله ودبّر الأمر.

فلبست ثيابي لأَخرُجَ فأستدين... وإذْ يُطْرَقُ الباب، فيظهر محاسب المصلحة حيث أعملُ، ويعطيني فروقات ماليّة مستحقّة لي، قدرُها مئتان وثلاثون ليرة، وقد كانت ـ يومها ـ ذات قيمة. فأخذ منها السيّد ثلاثين ليرة، إذ ببركته فُرِجَتْ، وقال لي:

ـ دبّر حالك بالباقي!.

ألا تذكّرنا هذه الحادثة بالحديث القدسي: «عبدي، أَطِعْني تكُنْ مثلي، فقُلْ للشيء: كُن، فيكون»؟!.

لقد كان السيّد حقًّا، يُوفَّق لخدمة الناس والإيفاء بالوعود التي يقطعها، من حيث لايدري، ولا نحن ندري، ولا أحد... وهذه من

لطائفه وكرامته عند الله سبحانه:

اتّصل بسماحته كشّافةُ الإمام المهدي‍ﷺ، فوعدهم بمبلغ من المال، فجاؤوا لأخذه. وإذ لم يكن المبلغ متوفّرًا، لم يقابلهم خجلًا وتأسّفًا... وحارَ في أمره، ماذا يفعل، فهُم ينتظرون؟!.

وإذ به ينظر إلى ظرف مختوم على المكتب... بسرعة فتحه ليرى فيه المبلغ المطلوب!. فخرج إلى الشباب هاشًّا في وجوههم، فسلّم عليهم وقبّلهم ثمّ سلّمهم المبلغ.

وإنَّ لله جنودًا من كلّ الكائنات وأجناس المخلوقات... هذا ما يؤكّده الشيخ علي رضا محمود إيماني راويًا:

ـ في بداية التدريبات العسكرية في معسكر «جنتا»، كان القصف الإسرائيلي شديدًا وغادرًا كدأبه دائمًا. فسقط في القصف عدد من الضحايا اللبنانيّين والإيرانيّين... ثمّ أَسقطت الطائرات الإسرائيلية عددًا من القنابل الموقوتة. فسقطت إحداها على قفير نحل... وإذا بالنحل ينتشر مذعورًا في كلّ مكان. فهرب الإيرانيون اتقاءَ اللَّسْع!. فانفجرت قنابل أخرى في المكان الذي كان فيه الإخوة الإيرانيّون، ولم يُصَبْ أحدٌ منهم بأذى لأنّهم كانوا قد أصبحوا بعيدين!.

عندئذ قال السيّد عباس: «**إنّ لله جنودًا من النحل تخدم المؤمنين**»!.

وللطبيعة مع السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) شؤونٌ وعِبَر!. فها هو السيّد سلمان جميل الموسوي راويًا:

- في يوم، أصرّ السيّد عبّاس على الذهاب إلى موقع «اللويزة»، وهو خطِر جدًّا، ومكشوف للعدوّ الإسرائيلي، والطيران جاهز... فوصل السيّد إلى «مليتا»، وإذا بغمامة كثيفة واسعة مكفهرّة، قد غطّت الفضاء فوق السيّد ومرافقيه. فلم يخرُجْ - ساعتئذ - الطيران، واستطاع السيّد أن يصل إلى الموقع بأمان. وعند وصوله انجلت الغيمة تمامًا!.

عندئذ قال السيّد حسن نصر الله (حفظه المولى) : «مَنْ مِثلُنا، واللهُ تعالى يُسيّرُ الطبيعةَ مع السيّد عباس؟!».

إنّ النظر إلى مثل هذه الأمور بعين العقل والمنطق، يوقعُ الإنسانَ في الحَيْرة والدهشة... إذ قد تأتي الأشياءُ مَسُوقةً بغير أسبابها الموضوعيّة، وتُفْضي إلى غير نتائجها المنطقيّة بحسب القوانين الوضعيّة للمناطقة[1] وأهل العلم... وفي هذه الحال لا يُريحُ الإنسانَ إلّا النظرُ بعين الإيمان والتسليم بأنَّ لله في تصريفه الأمورَ لحَكمةً، وهو - سبحانه - أعلم!.

على هذا النحو تأتي معجزات الأنبياءِ والمرسلين، والأئمّةِ الصدّيقين، والأولياءِ الصالحين. وليس ذلك بعسير على الله وهو

(١) المناطقة: أصحاب علم المنطق.

خالق الكونِ وقوانينهِ، ومُجْري السُّنَنِ بأسبابها وعللها. وهو قادر على إجرائها بغير نسَقٍ قد سَبق، وهو العليُّ القدير!.

فهل غريبٌ، بعدُ، أن يتأتّى للسيد عبّاس ـ بإذن ربّه ـ مثلُ تلك المعجزات، وهو الوليُّ الطاهر سليل الأطهار، والهاشميُّ الوالدين، ومَنْ وقَفَ حياتَه وحياةَ أُسرته وأهليه لنُصرة دين الله وإعلاءِ شأن الأمّة، حتى لَهجَتْ به الألسُن... أنهُ مِثالُ نبيّ؟!.

فكيف نفهمُ ـ إذاً ـ ذلك الحديث القدسي: «**عبدي، أطعني تكُن مثلي، فقل للشيء: كُن، فيكون**»؟!.

لقد رأينا في سيرة السيد، حتى الآن، بعض اللطائف العجيبة... وبحرُه بأمثالها فيّاض... فهذا أبو حسن الأشقر يقول:

ـ كنّا، يومًا، نزور محاور النبطية ليلًا، فأنهينا جولتنا حوالى منتصف الليل. عندها أراد السيّد الذهاب إلى عين بوسوار لينام، على أن يتوجّه من هناك إلى محاور الإقليم، صباحًا.

كانت، أيّامها، طريق حبّوش ـ عرب صاليم خطّ تماسّ خطيرًا، فهو مكشوف تمامًا لموقع السويداء، وقد حصلت عليه عدّة كمائن وتفجيرعبوات وقنص... فكانت التعليمات بعدم سلوك هذا الطريق، والاستعاضة عنه بالنزول إلى صيدا، ثمّ الصعود باتجاه الإقليم.

عند مفرق حبّوش قلنا للسيد: «نأخذ طريق حومين ـ عين قانا ـ

جباع، إلى عين بوسوار».

فرفض السيّد هذا الإقتراح لأنّ الطريق طويلة، وقال للسائق «أبو بلال»: «انطلق، ولا تتوقّف مهما حصل!».

فانطلقنا، مع أنّنا تكلّمنا، عبرالجهاز، مع مسؤول الإقليم، فحذَّرَنا من سلوك طريق جرجوع ـ عين بوسوار، لأنَّ القصف والقنص عليها غزيران.

ولكنّ السيّد أصرّ... فوصلنا إلى عرب صاليم. وعند أوّل طلعة جرجوع كان الرصاص غزيرًا... فلمّا وصلنا إلى الكوع المكشوف تمامًا لموقع سُجُد، تيقنّا بالشهادة، ورحنا نقرأ الفاتحة!.

ولكنْ، لَشَدَّ ما دُهشنا إذ لم نعد نسمع طلقة واحدة!. وإذا بنا نمرُّ بسلام وندخلُ عين بوسوار آمنين... ففوجىء بنا مسؤول الموقع واتّهمَنا بالجنون !. إذ كيف أتينا من تلك الجهة؟!.

عندئذ نظرنا إلى السيد، فرأيناه يبتسم، وهو في غاية الإطمئنان. ولا زلنا حتى اليوم، نقرأ في كتاب السيّد عباسﷺ، لعلّنا نفهم سرّ تلك الكرامات التي حباه الله بها... فلا نهتدي!.

وأخيرًا ـ وهل للكلام آخِر؟!. ـ هاكُم أمورًا لا يتصوّرها عقل ولا يُسيغُها منطق...

يروي أحمد علوية ما عاينه[١] عِيانًا:

ـ خُطّط لإحدى العمليّات في الجنوب، وحُشِد لها بما يناسبها... وفي اللحظة الأخيرة، ولسببٍ ما، جاء أمرٌ بعدم التنفيذ. فانسحب الشباب من الموقع الذي كانوا فيه كامنين، ما عدا ثلاثة إخوان لم يتمكَّنوا من الإنسحاب لأنَّ القصف المروحي الإسرائيلي كان فوقهم مباشرةً. فأيقنّا بأنهم، لا محالة، مستشهدون!.

كان السيّد في موقع قريب، فتوضَّأَ وصلّى، ودعا وبكى... ثمّ خرج إلينا ليبشّرنا بأنَّ الإخوان سيعودون قريبًا سالمين!.

استغربنا هذا الكلام لأنَّ الشباب كانوا في خطر أكيد، فليسوا في مغارة مختبئين، بل هم منكشفون أمام العدوّ.

وما مضت بضعُ دقائق حتى أطلّ الشباب، فعلًا، سالمين، وراحوا يُحدّثوننا عن أُعجوبة حصلت معهم: «كان القصف فوق رؤوسنا وبيننا، ولم يكن حولنا. ومع ذلك لم يتعرّض أيّ منّا لأية إصابة... المنطقة حولنا مكشوفة تماماً، ولا مفرّ... فأيقنّا جميعًا بالاستشهاد!. وبحقّ، نحن لا ندري كيف عُدنا سالمين!».

(١) عاين الشيء عِيانًا: رآه بالعين.

مع المجاهدين

بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عامَ ١٩٨٢، وقول الإمام الخميني﵀ للسيد عباس (رضوان الله عليه): «قاتلوا الإسرائيليين بنهج كربلائيّ عميق... ولا تنتظروا النصر قبل عشرين عامًا!»، راح السيّد مع ثُلَّةٍ من إخوانه المؤمنين بالنهج المقاوم لأهل البيت﵈، التحضير للقتال، وأخذوا يشترون السلاح لهذه الغاية.

فكانت عملية الشهيد أحمد قصير التي دمّرت مقرَّ الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور، يوم ١١ / ١١ / ١٩٨٢، فاتحةً لشهيّة المقاومين والاستشهاديّين.

وفي شهر تشرين الأوّل عام ١٩٨٣ تمّت عملية إحتلال ثكنة الشيخ عبد الله، في بعلبك، بطريقة سلميّة، بدون أن تُطلَق رصاصة واحدة، أو تُهدَر نقطة دم. وذلك بفضل شجاعة السيّد وحُسْنِ تخطيطه وتنظيمه لهذه العملية التي يُؤْثِر فضيلة الشيخ محمد علي خاتون أن يسمّيها عملية إنقاذ للثكنة من جيش السلطة آنئذ. وقد زحف الناس رجالًا ونساءً بقيادة السيّد عبّاس الذي أجرى مفاوضة حضاريةً هادئة مع آمر الثكنة أسفرت عن اقتناع الضابط وتعاونه.

واللّافت في هذه العملية أنَّ أحد الشباب وجّه كلامًا نابيًا لبعض العسكريّين فغضب السيّد أشدّ الغضب وأهان الشابّ بصورة علنيّة، ثمّ قال له:

ـ إنّ هؤلاء العسكريّين هم أهلنا، أبناؤنا وإخواننا، فاحترامهم واجب!

وقد كان لموقف السيد، هذا، وَقْعٌ طيّب في نفوس العسكريّين ضباطًا وعناصر، وساهم في تسليم الثكنة بذلك الأسلوب الراقي.

ومن يومها أصبحت الثكنة معقلًا للمجاهدين ومركزًا للتجهيز والتدريب وإعداد المقاتلين لإرسالهم إلى محاور القتال في الجنوب والبقاع الغربي.

لأجل ذلك تعرّضت الثكنة لغارات الطيران الفرنسي في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٣، كما تعرّضت هي وكافة منطقة بعلبك وجوارها لعدّة غارات إسرائيلية انتقامًا من الشباب المقاومين.

وفي العام نفسه، ١٩٨٣، بدأت عمليّات المقاومة تتوالَى وتتطوَّر تكتيكيًّا ونوعيًّا، وكان السيّد عبّاس يديرها مباشرةً من الجنوب.

وبعد العمليّة الأولى للمقاومة تهافتت وسائل الإعلام على السيّد يريدون إجراء مقابلات معه ويأخذون منه تصاريح. لكنّه اعتذر عن مقابلتهم قائلًا لإخوانه:

ـ لو أردتُ الزعامةَ والظهورَ الإعلاميَّ لحصلت عليهما. ولكنني رفضت ذلك لأنّ هذا العمل هو قربةٌ إلى الله تعالى.

ثمّ قال للإعلاميّين:

ـ إذا أردتم معلومات عن العمليّة فادرسوها أنتم وحلّلوها، ثمّ خذوا ما شئتم منها بأنفسكم... وانتظروا غيرها!.

وفي عمليَّة تلّة الحقبان ـ ياطر دُمّرت مجموعة إسرائيلية وتمّ أسر أوّل ملالة للجيش الإسرائيلي، واستشهد يومها ثلاثة «كوادر» من المقاومة هم الشهداء رضا حريري ومصطفى عبد الكريم وحسين قاروط، على أطراف ياطر.

أمّا في عمليَّة برعشيت الأُولى فقد شارك عدد من الأخوان السنّة وكان هذا دليلًا على إسلاميَّة المقاومة، لا على مذهبيَّتها.

وهل أوضَحُ ـ دليلًا ناصعًا على ما تقدّم ـ من أن يسقط، في عملية علمان الشومرية الأولى، شهيد سنّي من صيدا يدعى «حسن الكبش»؟!.

لقد رفضت أُمُّه أن يُشَيّع تحت أيّ اسم آخر غير اسم حزب الله مع أنه ينتمي تنظيميًّا إلى الجماعة الإسلاميّة، لأنّها كانت دائمًا ترى شباب حزب الله حواليها لخدمتها وتقديم المعالجة الطبية لها ولأُسرتها ومختلف التقديمات والمساعدات التي تنالها عوائل الشهداء.

لذا ولأنّ هذه السيّدة أُمَّ الشهيد كانت تثق بخطّ حزب الله ومبادئه ومواقفه البطولية والإنسانيَّة، فلم تكن تستقبل أحداً من سُنّة أو شيعة إلَّا بحضور مسؤول حزب الله عندها!. فهل كانت هذه اللطائفُ والمكرُمات إلَّا بفضل الله وتعاليم السيّد عبّاس وإرشاداته؟!.

غِطاء إلهي:

في تلك المحاور، محاور البطولة والفداء التي يقول فيها سماحة السيّد حسن نصر الله (دام ظلّه الشريف): «هنا المنبر والمحراب والمعبد والمسجد. وهنا يصبح السيّد عبّاس إنسانًا آخر. كانت المقاومة كلَّ همّه... كيف تصبح أُمَّةً تقتلع الوجود الإسرائيلي من الجذور...»، هنا في هذا المحراب كان السيّد عبّاس يبارك المجاهدين، إذ يرفع القرآن ويجعل المقاومين يقبّلونه ويمرّون من تحته تباعا. ثمّ يقرأ السيّد في أُذن كلّ مجاهد:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[1].

إنَّ هذا الدعمَ المعنويَّ والروحانيَّ الكبير الذي كان يعطيه السيّد للمجاهدين كان ينزعُ الخوفَ من قلوبهم ويجعلهم أقدرَ على مواجهة العدوّ بالرغم من كلّ جبروته والتفوّق في طائراته ودبّاباته وأسلحته.

ونسوقُ ـ دليلًا على ذلك ـ مِثالَيْن إثنين: قولًا لأحد المجاهدين،

(١) القَصص: الآية ٨٥.

وواقعةً حيّةً لمجاهد آخر؛

أمَّا القولُ فهاكُم: «حَضَننا السيّد القائد الملهَم، فزوَّدنا بطاقةٍ عجيبة، لم نعد نشعر بثقل الأسلحة والذخيرة التي نحملها، مُقابلَ تلك الذخيرةِ الروحيّة والمعنوية التي جعلتنا نثبتُ ونقاتل هذا العدوّ».

وأمَّا الواقعةُ الحيّةُ فإليكم:

انطلقنا من بلدة اللويزة إلى أحد مواقع العدوّ فشعَرْنا بالرَّهبة من التحصينات والدُّشَم ودبّابات الميركافا ورشاشات الـ (٥٠٠) التي كانت تنتظرنا.

عند ذلك تذكَّرْنا كلمات السيّد عبّاس عندما جلسنا معه، في المغارة، وهو يحدّثنا عن جهاد أهل البيت عليهم السلام، فشعرنا بالطمأنينة. وإذا بهذا الموقع الرهيب يتهاوى في أعيننا قبل أن نَصِلَ إليه.

وصلْنا عند الساعة الواحدة ليلًا، إلى نقطة التمركز، تحت موقع العدوّ مباشرةً. وكنّا متعَبين فاستطعنا أن ننام، وراح بعضنا يَشْخِرُ من الإجهاد، فخفنا أن يَصِلَ شخيرنا إلى مسامع العدوّ، وهو فوقنا تمامًا!.

وعند الفجر انطلقنا صُعُدًا إلى الموقع، فلم نسمع من العدوّ طلقة واحدة كأنَّ هناك غِطاءً إلهيًّا كان يواكبنا...

وصلْنا إلى الموقع وبدأنا الاقتحام... بعد أن دخلتُ الموقع

أُصِبْتُ بشظايا قذيفة من دبّابة ميركافا في أنحاء مختلفة من جسدي. كما أصيبت يدي بطلقة من عيار (١٢،٧) من الدهاليز تحت الأرض، أو من خلال الدُّشَمِ غير المنظورة...

كانت إصاباتي بالغة فقد انخلع منّي الوَرْك، وكُسِرَتْ فخذي، إذ تعرّضت لِستّ إصابات داخل الموقع، والجراح في مختلف أنحاء جسدي...

بقيت وحيدًا في المكان لمدّة أربع ساعات وأنا أنزِف... وإذ أشرقت الشمس وغمرني نورها، فاعتبرتُ ذلك لطفًا إلهيًا لأنَّ الدم تجمّد فوق الجراح، وتوقّف النزيف.

لم أكن أشعر بثقل جسمي على الأرض، ولم آبه للأعداء الذين كنت أنتظر أن يأتوا إمّا لأخذي أسيراً أو لقتلي. أمّا سببُ ذلك الاطمئنان فهو تلك الروح المعنويّة العالية التي استقيناها من السيّد عباس(رضوان الله عليه) في جلساته معنا في المحور قبل الإنطلاق.

عندما كنت ممدّدًا على الأرض لا حراك بي، وكأنني مُشرف على الموت، أحسَسْتُ بأنَّ شخصًا جلس قربي... نظرت إلى ناحيته لعلّني أستأنس بحضوره فلم أرَ أَحدًا... لكنّني أحسست بوجوده... وراح يخاطبني:

«إهدأ، واصبر، إنّ الله مع الصابرين».

هذه الكلمات أضفَتْ عليّ سكينةً واطمئنانًا، إضافة إلى كلام السيّد في المغارة...

حاول أَخَوان سحبي بعيدًا عن الموقع، لكنَّ أحدهما أُصيبَ فاستُشهد والآخر أُصيب فلم يتمكَّن من إتمام مهمَّته.. لكنّني، للأسف، لم أستطع إسعافه، إذ لم يكن بي بُحبُحَةٌ لحراك، وأحتاج إلى من يسعفني... وهذا ما آلمني..

عندها نزل جماعة لحد إلى خارج الموقع حيث كنتُ منطرحًا. وكان هناك عدّة جرحى من الأخوان المجاهدين، فراح اللحديّون يُجهِزون علينا واحدًا إثْرَ واحد، مستغلّين عدم قدرتنا على الحراك!.

سمعتُ أحدهم يقول لزميله: «هناك واحد، أَطلِق النارَ على وجهه». فأطلقوا عليه النار حتى قتلوه، وأجهزوا على الجريح الثاني والثالث والرابع... لم أَخَفْ منه، بل رُحت أقرأ فاتحة الشهادة... أراد أن يتأكّد من أنّني ميْت، إذ كنت مجبولًا بدمي ولا أتحرّك. فأطلق النار أمام رأسي... درز غريزيًّا أكثر من خمسَ عشرةَ طلقة... أحسَسْتُ أنّها استقرّت في شعر رأسي، وأصابت نثراتُها وجهي. ثمّ تركني ومشى. نُعيتُ في بيروت أنني شهيد، فأُقيمت ليَ المراسم... وفي ذكرى الأربعين عرف الأخوان والأهل بأنني ما زلت حيًّا، إذ كنت قد أُخِذت أسيرًا.

فلَوْلا ألطافُ الله تعالى وبَركةُ سماحة السيّد عبّاس وروحانيَّتُه الدافقة في قلبي، لَمّا كنت اليوم في عِداد الأحياء... وها إنّي أتحضّر لقتال إسرائيل وعملائها من جديد!.

القائد المُلْهَم

كان على السيّد عباس(رضوان الله عليه) أن يترك بيته وأسرته في بعلبك ليستقرّ في الجنوب قائدًا ميدانيًّا، فكان يشارك في التخطيط لكلّ عملية، وأحيانًا في التنفيذ. ودليل ذلك أنَّ عملية سُجُد النوعيّة الأولى كان مشاركًا فيها وقائدها الميداني.

لكنّ السيّد كان يقدّر الاختصاصَ فيعطي رأيه في تفاصيل كلّ عملية خصوصاً العمليّات النوعيّة، ويَجْريَ نقاش، ثمّ يَتركُ الرأيَ الأخيرَ والكلمة الفصْل للمسؤول العسكري الذي يأتمر الجميع بأمره حتى سماحة السيد!.

وكانت الحَمِيَّة تدفع سماحته لِأنْ يشاركَ في كلّ عمليَّة نوعيَّة، فيلبسَ البذلة العسكريّة ويحملُ السلاح ويطلبُ إلى الأخ المسؤول العسكري أن يضعَه في عِداد أيّ مجموعة يرتئي، ويحدّد له مهمّته الجهاديّة. ولكنّ الإخوة جميعًا كانوا ضنينين بسلامة سماحته، فيرفضون منه أن يضحّيَ بنفسه لأنّ الشباب المجاهدين ـ بحمد الله ـ كُثُر، بينما موقع السيّد يَعُزُّ منه البديل.

ويرضخ السيّد لرأيهم خصوصًا إذا ألحّ عليه المسؤول العسكري، فيبقى في الموقع المتقدّم حاملًا السلاح، وحارسًا في غيابهم.

أمّا إذا كان هناك حَرس فينصرف السيّد لخدمته وخدمة الموقع، فيُعِدُّ الطعامَ ويغسلُ الأواني ويكنسُ الأرض ويغسلُ ثيابه وثياب المجاهدين!

لم يكن ينام، بل يظلُّ ساهرًا حاملًا الجهاز ومتابعًا أخبار العمليّة ومجرياتها... ولا يطمئنُّ حتى يعود جميع الأخوة سالمين، وقد أنزلوا ضربات قاسية موجعة في صفوف الأعداء وعملائهم، وحقّقوا عليهم نصرًا مؤزّرًا مبينًا.

وكما كان السيّد آخر من ودّع المجاهدين فهو يحرَصُ على أن يكون أوّل المستقبلين لهم. عندئذ يقبّلهم واحدًا واحدًا في جباههم، ويمرّر كفيه الشريفتين على رؤوسهم وأكتافهم... أَبِهِمْ إصابة؟!.

هو أَوَّلُ مَنْ سَنَّ قُبلةَ الجبين. فلمّا سئل عن سرّ ذلك قال: أنا أقبّلُ هذه الجبهة الكريمة التي تسجدُ لله!.

ثمّ يترك الشباب ليرتاحوا فيناموا عدّة ساعات، وهو حَوْلهم... مرّة فوق رؤوسهم، ومرّة عند أقدامهم.. ملاكًا حارسًا.

عند صحوتهم يجلس إليهم ويسألهم عن طبيعة المعركة، وكم أنزلنا من خسائر بالعدوّ... فيحدّثونه بالتفاصيل التي يحبّها، إذ

لا شيء أحبُّ إليه من سِيَرِ البطولة والفداء، فأخبار المقاومة كانت بمنزلة الأذان في سَمْعه ووجدانه.

أمَّا إذا كان بين الشباب جرحى فكان ينزع أحذيتهم ويسعفهم قدر المستطاع مخفِّفًا من آلامهم حتى يحضرَ شباب الهيئة الصحيّة، فيتركَ الأمر لهم.

وعندما يعترضون على نزعه حذاءَ المجاهد بيديه الشريفتين يقول:

«تكليفي هنا، في الجنوب، لأخدم المقاومة. وأنا عبدٌ لكلّ مجاهد» !.

وأمَّا إذا سقط أَحَدُ الشهداء فكان يبكي أشدّ البكاء، ولا يرتاح حتى يُسْحَبَ جثمانُه الطاهر من أرض المعركة، ويؤخذَ إلى مكان ظليل آمن، فيجلس السيّد إزاءه باكيًا، ويقبّل جبهته ووجهه ويديه... ويغسّله بدموعه ويكفّنه بحرارة أنفاسه... ثمّ يُصلّي عليه، ويزفُّه إلى موكب النور، قافلةِ الشهداء من أهل البيت عليهم السلام.

أمام بطولات المجاهدين وتضحياتهم وإنزالهم الضرباتِ الموجعةَ بالإسرائيليّين، والقاصمةَ لظهور عملائهم اللحديّين، جُنّ جنون الأعداء. وإذ لم يتمكّنوا من المجاهدين الأشاوِس[1] وإيقاف

---

(١) الأشاوس: مفردها «أَشْوَس»، وهو الشديد الجريء في القتال.

عمليّاتهم البطولية، ولدى عجزهم عن إسكات صوت الحقّ المُجلجِل لسماحة الشيخ المجاهد راغب حرب ﷺ، فقد لاحقوا هذا الصوت بُغيَة إسكاته، واعتقلوه لضرب المقاومة من خلاله.

لكنّ سماحته أبى أن يصافح الضابط الإسرائيلي قائلًا: «إنَّ الموقف سلاح والمصافحة اعتراف».

وكان أثر ذلك عظيمًا في وجدان الناس، فازدادوا تأييدًا للمقاومة وتعلّقًا برموزها ووفاءً لذكرى شهدائها.. وتلاحقت العمليّات الجهاديّة، فما كان من العدوّ إلّا أن أطلق سراح الشيخ القائد، ولكنْ إلى حين.. ثمّ أمر باغتياله بوساطة عملائه في ١٦ / ٢ / ١٩٨٤.

تأثّر السيّد أيّما تأثّر لاستشهاد صديقه ورفيق دربه الشيخ راغب حرب الّذي تعرّف إليه في النجف الأشرف حيث كانا معًا طالبَيْن مميّزَيْن عند أستاذهما السيّد محمد باقر الصدر ﷺ، وكان بينهما كثير من المزايا المشتركة، أهمُّها الإخلاص والجدّية المطلقة والزهد والربّانيّة.

ولّما عادا إلى لبنان ظلّا على علاقة وطيدة، يُبلّغ كلٌّ في محيطه، حتى الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ فانقطعت بينهما سُبُل التواصل، وراح كلٌّ منهما يحقّق إسلامَه العمليَّ جهادًا ومقاومةً

لطرد المحتلّ من أرضنا الطيّبة.

لقد شارك السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) في ذكرى أسبوع الشهيد راغب حرب ﷺ، وكان لمشاركته وكلمته في الاحتفال وقع كبير في نفوس الجماهير التي أتت من كلّ حدب وصوب واحتشدت في حسينيّة جبشيت وخارجها.

وكان السيّد في تلك الأيام يُذكّر الناس بمقولة الإمام الخميني ﷺ، عند سقوط أيّ شهيد، مخاطبًا أميركا وإسرائيل وكلّ أعداء الأمّة: «اقتلونا، فإنّ شعبنا سيعي أكثر»!.

وإذا بأطفال الجنوب يتحدَّوْنَ، بصدورهم العارية، دبّابات إسرائيل وأسلحتها الفتّاكة، ويقومون مع الأبطال الكبار ببطولات ولا أروع!. يعبّر السيّد عبّاس عن ذلك في أسبوع الوحدة في طرابلس، يوم ٧/ ١٢/ ١٩٨٤، بقوله:

أحد أطفالنا المجاهدين غَلّفَ برتقالةً بورقة بيضاء، عندما رأى الدوريّة الإسرائيلية الراجلة، ورمى عليهم برتقالته، فانبطحوا أرضًا، ولم يرفعوا رؤوسهم إلّا بعد أن جاءهم الخبير العسكري. كانوا يعتقدون أنّ ما رُمي عليهم قنبلة قد تنفجر بين اللحظة والأخرى. المهمُّ أنّهم بعد تطمينهم قاموا ليقرأوا كلمة مختَصَرة في الورقة البيضاء:

«إنّ قنابلَكُم لن تخيفَنا، وبرتقالُنا يخيفُكم»!.

أمام هذا الإذلال الذي تعرّض له الصهاينة لأوّل مرّة في تاريخهم الحديث، وتحت ضربات المقاومين الشرفاء اضطرّت إسرائيل إلى الإنسحاب في ١٥ نيسان من عام ١٩٨٥، إلى خطّ تماسّ جديد يمتدُّ من وادي السلوقي بطول (٥كلم)... وخطّ آخِر بيوت عيتا الشعب ومعبر بيت ياحون.

فأصبحَتِ الحربُ أكثرَ كلاسيكيّةً لأنّ الأرض لاعب رئيسي في الجبهة، كما عبّر أحد الأخوة المجاهدين. لذا أعاد الشباب رسم خريطة المنطقة.

بعد الانسحاب الإسرائيلي اضطرّ السيّد عبّاس إلى أن يترك الحوزة العلميّة في بعلبك، ليتفرّغ كُلّيًّا للجهاد في الجنوب، مع العلم أنه كان يعتبر الحوزة حياته ولا يستطيع أن يعيش بدونها. فعَهِدَ بها إلى صديقه وجاره فضيلة الشيخ محمد علي خاتون الذي أحسن إدارتها من بعده.

ولكن السيّد المحبّ العاشق لهذه الحوزة ظلّ يُطلّ عليها بين الوقت والآخر، وكلّما سنحت الفرصة، ليطمئنّ إلى سلامة مسيرتها ونُجْح طلّابها.. كالطائر الأُمّ تَرْقُب فراخَها مرفرفةً وقد تعلّمت الطيران حديثًا بنجاح... وتحاذر أن يضعف بأحدها الجَناح.. فيهوي.. ويهوي قلبها في إثره..

ولم يهنأ العدوّ الإسرائيلي بخطّ تماسّه الجديد، إذ استمرَّتْ عمليَّاتُ المقاومة باندفاعةٍ متسارعةٍ صعُدًا... حتى إنّ عام ١٩٨٦ كان عام العمليَّات النوعيّة والانتصارات المتتالية. وكانت هذه الانتصارات بشائرَ إلهيّة دفعت المقاومة فيها خيرة شبابها ذَوْدًا عن الأرض والشرف والكرامة.

ففي عمليَّة علي الطاهر والدبشة سقط للمقاومة ثلاثة عشر شهيدًا بينهم الحاجّ سمير مطّوط (الشهيد جواد) الذي دخل موقع العدوّ وسيطر على دبّابة إسرائيلية قبل استشهاده.

ويطلب السيّد عبّاس إلى الأبطال المقاومين أن يُحْضِروا معهم من مواقع العدوّ دبّابة أو ملالّة أو أسلحة وذخائر إسرائيلية... ولَيْتَهُم يأسِرون بعض جنود العدوّ!. فيقول له المجاهدون: «لَبَّيْكَ يا سيّد»!

وكان الردّ العمليّ أَسْرَ الشباب جنديّين إسرائيليّين في منطقة الخربة، في ١٦ شباط من عام ١٩٨٦، أي بعد حوالي سنة من اندحار العدوّ عن كثير من مناطق الجنوب.

وفي ٢١ شباط من سنة ١٩٨٦ تمّ اقتحام موقع كفرحونا للعدوّ وأصيب بخسائر فادحة. وسقط يومها قائد العملية الحاج رضا الشاعر شهيدًا.

أمَّا عمليّة علمان ـ الشومريّة فقد كانت قاسية على المجاهدين،

إذ سقط فيها ثمانية عشر شهيدًا، من بينهم قائد العمليّة أحمد شعيب رضوان الله عليه وعلى جميع الشهداء الأبرار.

وأمّا عمليّة بدر الكبرى عام ١٩٨٧ فقد خُطّطَ فيها لمواجهة ستّة عشر موقعًا عدوًّا، واقتحام أربعة منها وتدميرها، ومنها موقع الرادار...

وقد حقَّق المجاهدون فيها انتصارًا كاسحًا على الإسرائيليّين واللَّحديّين، وغنموا آلية عسكرية إسرائيلية، وكان من نتيجتها كسر البنية العسكرية للعملاء الخَوَنة!.

وهكذا تمّ الثأر لدم الشهيد أحمد شعيب ودماء بقية إخوانه الشهداء. فقدّم السيّد عبّاس هذا النصر المؤزّر لوالد الشهيد شعيب في الشرقيّة، قائلًا له: «**إنّ دماء الشهداء لا تذهب هدرًا بل إنّها تجري متدفّقة في عروق الأرض وشرايين الشعب وتتحوّل في وجدانه إلى وعي وجوديّ..**».

وبحمد الله، لم يقتصر هذا الوعي على شعب المقاومة في لبنان، بل تعدّاه إلى أبناء الأمّة جميعًا، خصوصًا في فلسطين التي شهدت انتفاضة مباركة متأثّرةً بأجواء النضال والشهادة في لبنان.

وإذا بصوت السيّد عبّاس يرتفع في خطبة الجمعة في بعلبك، يوم الخامس عشر من شهر نيسان عام ١٩٨٨، قائلًا:

«تمكّنت المقاومة الإسلاميّة، بفضل جهادها المرير، بفضل بطولاتها وشجاعتها، بفضل دماء شهدائها، أن تخطّ خطًّا جديدًا لهذه الأمّة. وإذا بأبطال الإسلام في الضفّة الغربيّة والقطاع يعبّرون أفضلَ تعبير عن الدرس الكبير الذي أخذوه من مجاهدي المقاومة الإسلاميّة».

وأثبت السيّد لكلّ المتخاذلين بأنّ العين يمكنها أن تقاوم المخرز وأن تنتصر عليه كما انتصر الدم على السيف في كربلاء، شريطةَ أن تؤمن بربّها وقدراتها، وتمشي على نهج أهل البيت عليهم السلام في التضحية والفداء.

رجُل التخطيط والمؤسَّسات...

قبل الثورة الإسلامية المباركة في إيران، طرح السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) فكرة الإذاعة الإسلامية، ليكون بذلك أوّل من فكّر في هذا المجال الإعلاميّ الخطير، كما كان سبّاقًا في غيره من المجالات.

ويقول فضيلة الشيخ يوسف علي سبيتي: «قبل الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ كان السيّد يناقش مع الأخوة مشروع الإذاعة، خلال اللقاء الأسبوعي بهم، قبل أن يكون هناك حزب الله أو غيره. وطلب إعداد برنامج للإذاعة، عبارة عن فقرات متعدّدة: من نشرات الأخبار، إلى تلاوة القرآن والبرامج الدينية، إلى إجراء الأبحاث والأفلام الوثائقية. لم نفهم، يومها، أبعاد طروحاته الفكرية...».

وبعد أن قامت الثورة المظفَّرة وخاضت معاركها الضارية ضدَّ كافَّة الأعداء لترسيخ جذورها وتعميق انتمائها إلى شعبها وأُمّتها... راحت تخوض معاركها التنمويّة، وتهندس ثورتَها الصناعيَّة وتطوّر قدراتها التكنولوجيّة... وإذا بها تتلو صحيفةَ مبادئها... بل صُحُفَها الحضاريَّةَ على العالم أجمَع.

وعندما كان السيّد عبّاس يزور طهران ويلتقي بالأخوان المسؤولين في كافَّة القطاعات... أو عندما يزور السفارة الإيرانيَّة في دمشق، أو يستقبل الوفود الإيرانيَّة في لبنان، لم يكن سماحته يكتفي باستعراض الأوضاع السياسيَّة، وتوفير الامكانيَّات المختلفة لمقاومة الاحتلال الإسرائيليّ للبنان. بل كان يسأل الإخوة الإيرانيّين ـ وهم السبّاقون في حضارتهم التاريخيّة الناصعة ـ عن المشكلات الجدّية التي تعترض، اليوم، سبيلَ تقدُّمهم الحضاريّ في مختلِف المجالات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والتربويَّة وسواها...

وكان السيّد يُصغي إلى المفكّرين العلماء والأساتذة المهندسين من الأخوة الإيرانيّين، باهتمام بالغ، ويَسْبُرُ أغوارَ أفكارهم، ويستقصي أبعادَ نظرتهم لاجتراح الحلول الناجعة لكلّ المشكلات المعترضة.

وإذا بفكرة المؤسَّسات الخدماتية والإنتاجيَّة التي تَفَتَّقَتْ عنها عبقريَّتُه الإداريَّة مشفوعةً بعبقريَّة إخوانه الإيرانيين، تتعمّق أهمّيتُها في ذهنه وتنضَجُ في تجرِبته لتستشرفَ آفاقَ التطوّر في المستقبل الواعد.

ويعود السيّد إلى لبنان، وفي جعبته صَيْدٌ وفير وتجرِبةٌ مُعمّقَةٌ غنيَّة... ليتابع رحلةَ التفكير والتخطيط لمؤسَّسات حزب الله المختلفة.

ولعلّنا لا نبالغ أو نجافي الحقيقة إذا رَدَدْنَا كلَّ مؤسَّسة من المؤسَّسات العاملة، اليوم، في حزب الله، إلى زرع يده، كهيئة دعم المقاومة، مثلًا، التي أنشأها بجهوده وجهود إخوانه العاملين معه في الشورى وخارجها.

يقول الدكتور عبّاس خميار مدير الإذاعة الإسلامية، يومئذ، إنَّ أوَّل من عرف قيمة الإذاعة وقدّر خطورة الإعلام في المعركة هو السيّد عباس، وكذلك في ما خصّ بقيَّة المنابر الإعلامية، فمن مطبوعة «حزب الله»، إلى «العهد»، إسم الجريدة التي أسَّس لها السيّد عام ١٩٨٣ لنقْلِ معاناة الناس وأخبار المجاهدين...

لقد كان السيّد عبّاس هو المسؤول الثقافي في تلك الصحيفة، ثمّ انتقلت المسؤولية إلى عُهدة الحاجّ محمد رعد.

وقد طلب السيد، يومها، أن يقوم المراسلون الصحافيُّون والمحرّرون بإجراء تحقيقات اجتماعية تلقي الضوء على معاناة الناس، ومشاكل العمّال والكادحين، ومطالب المعلّمين والطلّاب، والفقراء والمزارعين... إضافة إلى الأخوة المقاومين والجرحى وعوائل الشهداء والأسرى.

أمَّا مؤسَّسة جهاد البناء فقد كانت وفيّة لسيّدها. هذا ما يؤكّدُه سلطان أسعد، مديرُها في ذلك الوقت، حيث يقول: (عام ١٩٩١،

دَعَتْه مؤسَّسةُ جهاد البناء لافتتاح معرضها الزراعيّ الأوَّل في بعلبك، فكتب في سجلّها كلمة ستظلّ تفتخر بها طيلة عمرها: «شَعَرْتُ بالقوّة والعزّة وكأنَّني أجولُ على مواقع المجاهدين في ثغور المقاومة الإسلاميَّة».

إنَّ رؤية السيّد لهذا المعرض البسيط ينمّ عن مستقبل عظيم لهذه المؤسَّسة).

لقد كان همّ السيّد عباس ﵀ أن يرضي الله في خدمة عباده، فما عَرض عليه إنسانٌ مشروعًا من المشاريع التي تخدم الناس وتخفّف معاناتهم إلّا قال السيد: «لَبَّيْك!»، من غير أن يسأل عن تكاليف المشروع أو مدى توفُّر الإمكانيّات الماليّة الكافية لتحقيقه... فكلّ ذلك يأتي لاحقًا في التفاصيل..

وكان سماحته يردّد هذه العبارة: «شَرّك الله معك، في أيّ مشروع ينجحْ»!. وهي العبارة التي أخذها عن سماحة السيّد موسى الصدر (أعاده الله ورفيقيه بخير)، يوم حدَّثَه السيّد الشهيد عن مشروع الحوزة العلمية، ونال مباركته ودعْمَه إضافة إلى تلك العبارة الحِكْمة.

وهذا هو الأخ أحمد علويّة يعبّر عن تجربته مع السيّد عبّاس في مجال المشاريع الصحّية، فيقول: عرضْتُ على السيّد مشروع

بناء مركز صحّي للهيئة في بلدة الغازيَّة، فقال لي: «ماذا تنتظر؟ ألن تساعدَ هذه المؤسَّسةُ الناس وتعالجهم، وتشفي المرضى؟ وتساعد الفقراء والمستضعفين؟ أتريد موافقتي؟ حاضر، أنا جاهز»!.

كان ذلك عام ١٩٨٤، فتمّ المشروع حيث أُنشىء مستوصف خيري، كما أنشىء مستوصف آخر في بلدة خربة سلم.

ومن المؤسَّسات التي أنشأها السيّد عبّاس ورعاها «جمعية الأطبّاء المسلمين»، وكان سماحته، كما يروي الدكتور حسن دقماق، يعقد اجتماعات مع الأطباء في مستشفى الرسول الأعظم، ويربط الجمعية بالقضايا الإنسانية وأوضاع الأمّة وكلّ ما يهمُّ المسلمين في العالم. فكان الأطبّاء يخرجون من الاجتماع مبهورين بشخصيّة السيّد وأبعاده الفكريّة والإنسانيّة.

آراء وتعاليم...

لم يكن السيّد عباس ﵀ فيلسوفًا أو مفكّرًا علميًّا لتكون له آراء وتعاليم ودراسات بحيث تُشكّلُ مدرسةً فلسفية أو مذهبًا فكريًّا وعلميًّا يُدرّس في الجامعات ومعاهد العلم والدراسة..كما لم يكن مرجعًا دينيًّا ليصنّف المؤلَّفات ويُصَنَّفَ بين المَراجع، ولا هو ادّعى هذا لنفسه.

ومع ذلك فقد عرَفْنا تفوُّقَه في الدراسات الدينيّة، سواءٌ في معهد الدراسات الإسلامية في صور، أو في حوزة النجف. كما عرفنا تبحُّره في الثقافة العامَّة وخوضَه في مختلِف ميادين الفكر.

غير أنّه ـ بعد ملاحقته من قبل النظام الصدّاميّ البائد ـ لم يعد بإمكانه العودة إلى النجف لمتابعة ما كان بدأه من دراسات عُليا عبر «بحث الخارج» وسواه، في الفقه والشريعة.

ولَمَّا وجدَ سماحتُه الناسَ في قرى البقاع، خصوصًا مناطقَ بعلبك والهرمل، متعطّشين إلى وجود علماء دين بينهم، راح يقوم بواجب التبليغ ونشر الفكر الديني هدايةً للناس في قراهم النائية والمنسيَّة.

ولم يكتفِ بذلك، بل أنشأ ـ كما أسلَفْنا ـ حوزةً دينية في

بعلبك، وهو في سنّ الخامسة والعشرين من عمره! ما لبثت أن أَتْأَمَتْ[1] فأُنْتِجَتْ حوزةٌ للنساء.

أمّا أن يُنتَظَر منه ـ بعدما عُرِفَتْ ظروفُه ورُصِدَتْ مهامُّه ـ استكمالُ دراساته العليا ليُصبحَ مرجعًا دينيًّا وفكريًّا، فهذا تكليفٌ بما لا يُطاق.

ذلك كان شأنُ السيّد قبل عام ١٩٨٢. أمّا بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ذلك العام، فقد أصبح لسماحته شأنٌ آخر. وثَمَّ مناقشة منطقيّة جرت بين السيّد عبّاس والسيد عبد الكريم فضل الله تلقي ضوءًا على هذا الشأن الجديد...

قال السيّد عباس:

ـ إنَّ مقولة «الإنسان حيوان ناطق»، هي ـ بحسب المنهج الفكري لأصحاب المنطق ـ من قَبيلِ حَمْلِ الشيء على نفسه... هذا يستتبعُ دراسةَ العلاقة بين المحمول والموضوع، ممّا يستهلك منّا ساعاتٍ من النقاش... قُلْ لي، بربّك يا سيد، ماذا نفيدُ الإنسانَ والأمةَ من مثل هذا النقاش: هل نفيدهم في الالتزام في الصلاة؟ أو تدبير شؤونهم الحياتيّة؟ أو حلّ مشاكلهم؟

فكان رد السيّد عبد الكريم فضل الله:

ـ أنت مُحِقٌّ في ما تقول. ومع ذلك فالأمةُ تحتاج إلى علماء

(١) أَتْأَمَتْ: أنجبت توأمين، كما في الأصل. وهنا: أنجبت الوليد التوأم.

دين متخصّصين تخصُّصًا عاليًا لإتمام الفائدة، وبيان الكمال الديني، إضافة إلى الاهتمام بالمسائل الاجتماعيّة...

وعاد السيّد عبّاس يؤكّد «نظرّيته» قائلًا:

ـ الوقت يسبقنا، وقضايا الناس تداهمنا، وعلينا أن نُقَدِّمَ لهم الاسلام الحيّ العملي والحركي الجهادي وليس الإسلام الجامد الذي يكتفي فيه المكلَّفُ بمجرَّد الصلاة والصوم، على أهمّيتهما البالغة!.

وقد طبَّق السيّد نظرّيته تلك خير تطبيق. فكان بارًّا بشعبه وأمّته... خادمًا للفقراء والمحتاجين... يؤْثِرهم على نفسه وعياله، وإنّ به وبأهله لَخَصاصة[1]!

أمّا في ما خصّ المقاومة والجهاد فخلال عشر سنوات، أي من عام ١٩٨٢ حتى عام ١٩٩٢، كان السيّد عباس(رضوان الله عليه) حركة لا تهدأ بين البقاع وبيروت والجنوب والشّمال والشام وطهران... وصولًا إلى باكستان وكشمير وأفغانستان، كما تمّ بيانه في مظانّه[2].

ففي مسألة المقاومة والجهاد كان السيّد مخطّطًا عسكريًّا ومنفّذًا جهاديًّا في كثير من الأحيان، إذا سمح له المقاومون... وقد استمرَّ على ذلك عقدًا من الزمن. ممّا جعله قطبًا نضاليًّا، وخبيرًا عالمًا بأساليب المقاومة والتصدّي... بل مرجعًا في نبذ الفُرقةِ، ووَأْدِ الفتنة، ووحدة

(١) الخَصاصة: الفقر.
(٢) مَظانُّه: مواضعه.

الأُمَّةِ على درب الشهادة والنصر!.

ومع ذلك فقد كان السيّد عباس ﷺ ـ كما يؤكّدُ نجلُه ياسر ـ يحبُّ الكتابة والتأليف. ولكنّ الوقت لم يُسْعِفْهُ، ولم يُمهِلْهُ الأجَلَ.

وبالرغم مما تقدّم، فقد كانت للسيد آراء ومواقف وتعاليم... مستَمَدَّة كلّها من دراساته الإسلامية وثقافته العامَّة وتجارِبه التي نضِجَتْ وضرَبَتْ جذورُها عميقةً في ثَرَى مجتمعه وأمّته.

ونحن، إذا توفَّرْنا على هذه الآراء والتعاليم... وجدناها تجري في أربعة ميادين: الإخلاص لله ـ الولاية لأهل البيت عليهم السلام وإطاعة الفقيه القائم ـ خدمة الناس ـ الجهاد ومقاومة الاحتلال.

فمن آراء السيّد عبّاس ﷺ وتعاليمه:

• **أطرُد ألأنا من نفسِك تَصِلْ.**

• **لازيارةَ تُقبَلُ إلّا بالمرور بالشام!.** (فزيارة السيّدة زينب عليها السلام واجبة).

• **إدعَمِ المسيرةَ، أو كُنْ عبدًا لأميركا وإسرائيل!**

• **أمامَ الإستشهاد أمران: ننتصرُ على عدوّنا، ونلاقي ربَّنا بقلب سليم.**

• **لا تخافوا... فكُلّنا ذاهبٌ في ساعته... «وكفى بالأجل**

حارسًا».

• **هذا الجبين الذي يسجد لله هو أولى أن نُقبّلَه.** (السيد هو أوَّلُ من سَنّ قُبلَة الجبين).

• **سنقاوم الإهمال كما نقاوم الإحتلال!.** (سنخدمكم بأشفار عيوننا).

• **أريد أن أقبّل التراب من تحت نعال المجاهدين والشهداء...** فهؤلاء هُم شرفُ الأمّة وعزُّها.

• **إيَّاكم وحُبَّ الدنيا،** «ففي حلالها حساب، وفي حرامها عقاب».

• **هناك الولاية لله الحقّ.** (يقصد الجبهة العراقية ـ الإيرانية، حيث ذهب ليقاتل بعد أن استخار الله).

• **نحن الشيعةَ كلُّنا أصفار على اليمين، والإمام الخميني**ﭭ **واحد.** وهذا الواحد، بدون الأصفار إلى يمينه، يظلُّ واحدًا. وأمّا الأصفار بلا واحد فليس لها أيّةُ قيمة!!.

• **كربلاء هي الجامعة التي خرّجت الثوّار!.**

• **ما دمتم تحت الولاية فاطمئنّوا.**

• **يجبُ توثيقُ الروايات التي تُقالُ في مجالس العزاء.**

• **الشجرة صدقة جارية.** (قالها تحت أشجار الجوز في منطقة «عمشكة»، بعد أن سأل عن زارعِها. ثمّ طلب أن تُقرأَ له الفاتحة!)

• **نحن قومٌ لا نؤذي حيوانًاولا نباتًا إلّا بقدر ما ندفع أذاه عنّا،** أو بقدر ما نحتاج إليه. ولا نقطع من النبات إلّا ما يعترضُ طريقَنا.

• **إن دماء الشهداء لا تذهبُ هَدْرًا،** بل إنّها تجري متدّفقة في عروق الأرض وشرايّين الشعب وتتحوّل في وجدانه إلى وعي وجوديّ.

• **أفضّل أن أعيش كلَّ حياتي على قوت الخبز والملح والبصل،** على أن آخذ شيئًا من بيت المال. (عملًا بقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«والله ما أَرْزَأُكم شيئًا... إنْ هي إلّا قطيفتي التي خرجتُ بها من المدينة»!).**

وبعدُ، فتلك نبذةٌ جِدُّ يسيرة من آراء السيّد عباس(رضوان الله عليه) وتعاليمه، استطعنا أن نتسقّطها من بعض مَنْ عرفه وعايش سماحته. وقد آثرنا أن نذكرها من باب التمثيل لا الحصر. إذ لو آتَتْهُ الظروف ومَهَّلَه الأَجَل ليكتب مذكّراته أو يصنّف بعض الكتب، لوقعنا على كثير من آرائه القيّمة وتعاليمه السمحة...

وكيف دارَ الأمرُ فإنَّ في سيرته العطرة ما يُغنينا عن البحث والتقصّي؛ فقد كان له في كلّ موقف من مواقفه النبيلة والجريئة

حكمةٌ عمليَّة ورأيٌ صائب، كما يشهد كلُّ من عرفه واسترْوَح عبير أخلاقه وإنسانيَّته. هذا ناهيك عن محاوراته ومناقشاته خلال لقاءاته واجتماعاته التي لا تكاد تُحصى.. فقد كان سيّدَ الحوار والمناظرة، لا مِرْيةَ[1] في ذلك.. يقلب الأوضاع رأسًا على عقب، فيُفحمُ الخصم، ويُعيد الظالم إلى جادَّةِ الحقّ، ويُشعرُ المَخوفَ والمرتاب بدفء الطمأنينة وبَرْدِ اليقين!. فكيف يتأتّى له ذلك كلُّه من غير بصيرة نيّرة، ورأيٍ راجح، وحكمة؟!.

وأخيرًا، فهاكم خُطَبَ سماحته معرِضًا لفنون القول وبليغ الكَلِم.. هي منهلٌ للعِطاش، إذا وردوهُ نهلوا منه بلاغة دينية، وحِكَمًا ثوريَّة، وآراء اجتماعية واقتصادية، وأفكارًا تربويَّة...

ونحن نعِدُ القرَّاء الأعزّاء ـ إن شاءَ اللهُ تعالى ومَدَّ في العمر ـ بأن نتوفّر على هذه الخطب دراسةً وتحليلًا ونقدًا، لإستنباط فرائدها وشرح قيَمِها وفوائدها الجُلَّى.

(١) مِرية: شَكّ

جوهر فريد!

إنّ القادة لا يهبطون إلينا بمظلّة من السماء، بل هم موجودون بيننا ولكنّهم ـ برأي أحد المجاهدين ـ يحتاجون فقط إلى مُناخ ملائم، وتربة كريمة لتنموَ بذرتُهم الطيّبة وتأخذَ دورها في حياة المجتمع، شأنُها في ذلك، شأنُ النبتةِ الفَتيَّةِ تُنْبَتُ في التربة الصالحة، ثمّ تزكو فتهيج، ثمّ تُخرِجُ من كلّ زوجٍ بهيج!.

هكذا كان السيّد عبّاس، كما يرى السيّد هاني فحص «عملًا تتراكم فيه الرؤى والإرادة، حيث إذا وجدت مكانًا لتتبلور تتبلور بعمق».

ولكنّ السيّد عبّاس كان نموذجًا فذًّا فريدًا بين القادة. كأنَّ الله تعالى ـ لمّا خلقه ـ شاء له أن يكون على غير مثال سَبَق. فقال له، سبحانه: «كُنْ نسيجَ وحْدِك»، فكان. وقال للآخرين: «كونوا متناظرين ومتمايزين»، فكانوا!.

من آيات فَرادته (رضوان الله عليه) أنّه كان يعلَم، في كثير من الأحيان، ما يريد أن يقوله الآخرون، قبل أن يتكلّموا... فهذا المجاهد الجريح علي عبّاس فوّاز يقول:

ذهبتُ إليه لأكلّمه في موضوع خِطبتي، فبادرني هو إلى الحديث في هذا الأمر قائلًا: «أنت تحتاج إلى الاستقرار، فعندك خطيبة ومشروع زواج، ونحن سنهتمُّ بهذا الأمر إن شاء الله». وهكذا قال السيّد ما أردت أن أقوله، كأنه كان يعيش وجداني، فأحسّ بي وأراحني من الإحراج. ثمّ سألني عن كلّ شاردة وواردة في مواقع الجهاد، وفي السجن الذي ساقوني إليه، وعمليّات التعذيب التي تعرّضت لها!.

ومن فَرادته أنه كان ـ بحسب تعبير الأمير عليه السلام ـ من رهبان الليل ولُيوث النهار. وكان سماحته ضدَّ الظلم من أيّة جهّة أتى، ولو من الأقربين عن سلامة نيّة وحسن قَصْد...

فقد أصدر الحزب، في إحدى المراحل، قانوناً يُخرج فيه مَنْ هُم فوق الخمسين عامًا من الحزب. فاعترض مَنْ شملهم هذا القانون، وهم كُثُر، محتجّين بأنَّ الدولة تُبقي موظّفيها حتى سِنّ الرابعة والستين. وهكذا أنظمة العالم. فهل هؤلاء جميعًا أعدل منّا؟!.

وراحوا يطالبون بإلغاء هذا القانون الجائر، بدون جدوى... فأتوا إلى السيّد عبّاس وأخبروه بالأمر، فألغى موعدًا مهمًّا كان مرتبطًا به، وليس ذلك من عادته!. ثمّ ضرب الأرض بقدمه وقال لأولئك المظلومين: «فَلْيُخرجوني أنا أوّلًا!!» ثمّ جُمّدَ القرار!.

ومن فرادته أنه كان ﷺ، خلال سِني حياته جميعاً، مشروعَ شهيد.. فعندما سئل عن سبب رفضه للسيّارة المصفّحة قال: لا أريدها، فهي واقيةُ الشهادة!.

وعندما صَعِدَ المنبرَ ليلقي كلمة في ذكرى استشهاد شخص من آل عقيل، صَعِدَ معه مرافقان لحمايته. فقال لهما: «أتنزلان؟ أم أنزل أنا؟» وعندما نزلا عن المنبر ألقى كلمته بحماية ربّه!.

ومن فَرادة نسيجه أنه كان خزّانًا من الرأفة واللياقة لا ينضب. فعلى الطريق إلى جبشيت، لمح ليلًا، امرأةً عجوزًا تمشي وحدها متثاقلة. فرقّ لحالها، وأوقف السيَّارةَ لِتُقِلَّها إلى حيث ذَووها. فحاولت إعطاءه ألف ليرة أجرة التوصيل، فابتسم لها قائلًا: «هذه لا تكفي، على كلّ حال سامحناك بالأجرة».

ثمّ نزل السيّد في جبشيت وأوصى الشباب بإيصالها إلى أهلها في النبطيّة، وليس إلى الطريق العامّ.

وعلى الطريق قال لها الشباب:

ـ أعرَفْتِ من هو ذلك الرجل الذي كنت جالسة قربه؟.

أجابت :

ـ لا ، من يكون؟.

قالوا لها:

ـ إنه السيّد عبّاس الموسوي...

فراحت تلطِمُ رأسها وتبكي، لأنّها لم تعرفه ولم تتمكّن من شكره!.

ومن نموذجه الفريد أنه كان يحفظ للغائب حقّه، إنْ تجاهله الحاضرون.. فذاتَ ليل، انقلبَتْ سيّارة المرافقة على طرف بستان فكسّرت بعض الأشجار. ثمّ سُحِبَتِ السيارة، ولم يَدْرِ صاحب البستان بالأمر. وكان يمكن للحادث أن يمرّ، ويُعتبرالفاعل مجهولا. غيرأنَّ السيّد سأل عن صاحب هذا البستان، فعرف أنه رجل مسيحي. وبعد حين أرسل إليه عددا من الأشجار بعدد التي أُعطِبَتْ، ومن النوعيّة والمواصفات ذاتها. فقدّمها الشباب له وأخبروه بما حصل معتذرين عن السيد. فراح الرجل يبكي ويدعو للسيد بطول العمر!.

وأخيرًا، من جوهره الفريد ذلك التآلف الغريب بين الضدَّيْنِ في شخصيته «والضّدُّ يُظهرُ حُسْنَه الضدُّ». إذ تتجلّى سماحتُه في حياء الفتاة وهيبة الأسد!. فهو يبكي للمظلومين والمستضعفين، ويزأر في وجوه الطغاة والمتجبّرين...

أمّا الأمانة العامّة فلم تزده إلّا تواضعًا، إذ «**الولاياتُ مضاميرُ الرجال**»، بحسب حكمة إمام الحكماء عليّ عليه السلام... ومن تلك

الحكمة استنتج الشيخ حسين قازان أننا إذا أردنا اختبار صلاح شخص أعطيناه ولاية أو أَسندنا إليه مسؤولية، فإن تكبّر وتجبّر، فقد شرُف بها ولم يشرُفْ. أمّا إذا اتّضع لله وتواضع للناس فقد شرُفت به الولاية ولم يَسِفّ...!

ومن تواضعهﷺ أنه كان خارجًا من المسجد، يومًا، مع خليل الموسوي. فانحنى السيّد خليل وحمل حذاءه وحذاء السيّد عباس. فما شعر إلاّ بقبضة شديدة على ظهره، تنهاه قائلةً، والغضب في مَقالها: «إيَّاك أن تفعلها ثانيةً»، إذ الهلاكُ والوبال في خَفْقِ النعال وراء الرجال!.

وأمَّا قصَّتُه مع ذلك الناطور الفلسطيني فقد باتت مضرِب مَثَل...في إحدى الأُمسيات كانت الضاحية الجنوبية تُقصف بشدّة. فآثرالسيد عبّاس أن يتوجّه إلى منزل الشيخ علي خازم في ساقية الجنزير، في بيروت، ليبيت ثَمَّ ليلتَه. لذا اضطرّ سماحته إلى إيقاظ الناطور من نومه ليفتح له بوّابة البناية، ثمّ اعتذر إليه.

وفي اليوم التالي، عند مغادرته المبنى، تقدّم السيّد من غرفة الناطور وألقى تحيّة الصباح، ثمّ اعتذر إليه مجدَّدًا عمّا سبّبه له من إزعاج مساء البارحة.

فلم يملك الرجل أن دمعت عيناه من شدّة التأثّر.. إذ يدخل

الأمين العامّ لحزب الله غرفته، ويقف أمامه بكلّ تواضع وأسف، ويكرّر اعتذاره إليه راجياً منه المسامحة... في أيّ حزب تَحْدُثُ هذه؟!. وعن أيّ مسؤول تَصْدُر؟!.

أنستغرب، بعد هذا كلّه إقرار الصحافيّ الأجنبيّ «روبرت بيكس»، بعد لقائه السيد، بأنَّ هذا ليس إنسانًا عاديًّا؟. أم نعجب من قول أحد السفراء: أنا لم أجلس مع إنسان... بل مع ملاك؟!.

رؤى... وكرامات...

في أحد لقاءات السيدعباس(رضوان الله عليه) بالإمام الخميني ﷺ كان يصطحب معه ابنه الصغير «حسين». فعطف الإمام ـ بحسب رواية السيّد ياسر الموسوي ـ على الطفل الصغير، ومسح بيده على رأسه، ودمعت له عيناه، ثمّ قال: «حسين مظلوم».

سمع السيّد عبّاس هذا الكلام فاستبشر خيرًا، بأنه لن يُستشهَدَ وحده، بل سيكون بعضُ أسرته شهيدًا.

وتتالت بعدئذ، الرؤى والكرامات على نفسه السَّمْحة، وتجلّت لروحه الصافية في الرؤيا حقائقُ وأحداث قبل أن تتحقّقَ ويراها الناس عِيانًا. وصَفَا له أديمُ السماء، فراح يقرأ من آياتها ما يقرأ، بإذن ربّه علاّم الغيوب.

فمِنْ رؤاه الصادقة العجيبة، كما يؤكّد الشيخ عدنان الربيعي، أنَّ أحد المشايخ من طلّاب الحوزة الدينية في النجف وقُمّ، قد استُشهد في انتفاضة عام ١٩٩٠ الشيعيّة في جنوب العراق. فأتى أُخوةٌ من العراقيّين والإيرانيّين إلى سماحة السيّد عبّاس ليخبروه بالنبأ الأليم. وكان السيّد يومها، مريضًا طريح الفراش. فاعتذر إليهم الحرس

قائلين:

ـ إنَّ السيّد مريض ونائم ولا نستطيع ، الآن، إزعاجه.

وإذا بالسيد يخرج إليهم، بعد أن أفاق من نومه، ويُبادرهم إلى السؤال:

ـ مَنْ هو الشيخ حسن الساعدي ؟.

فتعجّبوا من معرفته بالأمر وهم قد أتوا ليخبروه به. فسألوه بدورهم:

ـ كيف عرفت؟!.

فقال:

ـ كنت متعبًا فغفوت، فرأيت أُناسًا في مأتم كبير، وهم يبكون بشدّة. فسألْتُ: «ما الخبر؟». فقالوا: «الآن سيُرفَعُ على المنبر نعيُ الشيخ حسن الساعدي»!.

وما من رَيْب في أنَّ الخوض في كرامات السيّد عبّاس ولطائفه يُغرقنا في بحر لُجّيّ لا قرار له. فحسْبُنَا، والحالُ هذه، أن نعوم على شاطئه برويّةٍ وأناة فنُصيبَ ما يجودُ به البحرُ على الشاطىء...

فمن كرامات سماحته العصماء ما آل إليه أمرُ قريبه علي حسن الموسوي الذي لم يكن يقرأ القرآن بحجّة أنه لا يملك مصحفاً!. وكان

التزامه الدينيّ ضعيفًا... فكلّمه السيّد بما تخشعُ له القلوب وتذوبُ له الصُّمُّ الصلاّب. ثمّ أهداه مصحفًا.

وإذا بعليّ يقرأ القرآن بعد أن جعله مهجورًا، فتحسُن عبادته ويحمَدُ له الناسُ سلوكَه الطيّب بين الرّحاب والمحراب... فراح يعترف بما غيّر حاله قائلًا: «لقد أهداني السيّد عبّاس مصحفًا فهداني!».

ومن كراماته الأثيرة أنَّ أخا زوجة الشيخ جمال كنعان كان شرس الطباع، يصرخ في وجوه الناس ويشتمهم، ويُثير معهم مشاكل لا تنتهي... وكان غير ملتزم دينيًّا، فلا يصلّي ولا...

وذات يوم، خلال أحد نزاعاته مع الناس، راح يصرخ ويشتم كعادته. فلمّا تقدّم منه السيّد هدأ وتوقّف عن السِّباب والشغَب.. فأمسكه السيّد برأسه وقبّله في جبينه قائلًا: «تعالَ معي».

فأخذه إلى بيته، وتناول العشاء معه وظلّ منقطعًا إليه لمدّة ساعتين... يُحدّثه ويَهديه... فإذا به يخرج من عنده إنسانًا آخر.

وإذا به ينهض صباحًا فيُصلّي ويقرأ القرآن والدّعاء... ويصبح من خيرة المؤمنين!... ولمّا سأله الناس عن سرّ هذا التغيُّر السريع والغريب في شخصيّته وسلوكه، قال:

«قبّلني السيّد عبّاس في جبيني فهداني»!!.

أيُّ سرٍّ في هذا الرجل؟!. وما مدى كرامتِه عند الله حتى تُزَلْزَلَ أمامه موازينُ المنطق، فيقلِبَ مَياسِرَ الشرّ إلى مَيامِنِ الخير، ويجعلَ الجاحدَ للمؤمنين خليلا؟!.

ولن نطيل في سرد تلك الكرامات، التزامًا منّا بما أَسلَفْنا... ولعلّ لنا في واحدةٍ، بعدُ، غَناءً:

يذكرُ المرافق محمد حسين القاضي من أمر والده مع السيّد عجبًا، فيقول:

ـ كان والدي مريضًا جدًّا... طريح الفراش، ولا يكاد يقوى على شيء. عرف السيّد عبّاس بالأمر، فتفضّل بعيادة والدي، كعادته، عند سماعه بأيّ مريض.

كان بيتُنا من تراب وطين... وليس فيه أثاث يغري بإطالة الجلوس. فواسانا السيّد بكلامه العذب ولسانه الذي يقطرُ شهدًا.. وطيّب خاطر والدي بأنَّ له أسوةً حسنةً بعذابات أهل البيت عليهم السلام. ثمّ طلب إليّ أن آخذه إلى طبيب ليعالجه، أو إلى مستشفى إن اقتضى الأمر، لينال الرعاية اللّازمة. وطَمْأَنني بألَّا أهتمَّ لأيّ مال يُطْلَب، وأيّ دواء يوصف له مهما بلغ ثمنه... المهم صحّة الوالد وكرامته... فإنّ للوالدَيْن علينا حقًّا!.

سمع الوالد كلّ هذا الكلام الطيّب، فارتاحت نفسه، وشعر

بالبُرْء يَسْري في عروقه... ولمّا ودّعنا السيد، على أن يعود لزيارتنا ثانيةً، قال لي والدي: «هنيئاً لك، يا ولدي، على هذا الإنسان الذي ترافقه» !.

ولمّا طلبتُ إليه أن أحمله إلى الطبيب أو مستشفى رفض، فقلت له: «إذًا أُحضِرُ الطبيبَ إليك». فرفض كذلك، قائلاً:أشعر بأنّني أتحسّن، كأنْ لم يكن بي من بأس...

لقد انعكسَتْ زيارة السيّد إيجابًا على صحّته. فتحسّنت حاله وتماثل بسرعة للشفاء، بدون مستشفى أو طبيب، وبلا علاج ودواء!.

وكلُّ الناس في البلدة يعرفون هذه القصّة ويحمَدون للسيد كرامته عند ربّه... فصحّة والدي إالى،اليوم، جيّدة بحمد الله!..

ومن الغريب المدهش في الصفاء العِرفانيّ لدى السيد، أنّه كان يدرك، في أواخر أيامه، بأنه سيُستشهدُ قريبًا، ولن يُستشهدَ معه أحد من مرافقيه، بالرُّغمِ من كثرتهم حوله!.

ومن غريب الحِواراتِ التي جرت بينه وبين إخوانه ومرافقيه:

ـ لقد تأخّرْتُ...

ـ عمّ تأخّرْتَ، يا سيّد؟...

ـ لقد تَلَبّثْتُ طويلًا... فصلّيْتُ على كلّ الشهداء... وآن لكم

أن تُصَلُّوا علَيَّ!.

وتلتقيه أخته السيّدة ليلى الموسوي فتقول له:

ـ يا سيّد، لم يعد لحزب الله من تأثير كبير في الناس... وإني لأخشى أن يتحوّل إلى رقم جديد في قائمة الأحزاب اللبنانية... فهناك حالة فتور في الحزب كبقيّة الأحزاب.

فأجابها السيّد بكلّ هدوء واطمئنان وثِقة:

ـ هذه الحالة المتردّية لن يرفعها إلاَّ دماءُ عِمامة. (وأشار إلى عِمامته الشريفة!).

أمامَ هذا الإعداد الروحيّ للشهادة كان بعض الأخوة يقولون للسيد:

ـ أنت تُعرّض حياتك وحياة المرافقين للخطر. فعلى الأقلّ انظر إلى حياة المرافقين.

فكان يُجيبُهم:

ـ إذا استُشهدْتُ، فلن يُستشهد أحدٌ من المرافقين معي. فالشهادة اصطفاء.

هذا الحوار يؤكّده السيّد يوسف محمد عباس.

وكثيرًا ما سمعَه إخوانُه وأهلُه يدعو خلال صلاته: «أللَّهمَّ لا

تفجَعْ أُمًّا في ولدها بسببي»!.

ولعلّ هذا الشعور العميق بدنوّ الشهادة لم يلازم سماحته فحسب، بل انتقل إلى أهله وذويه. فهذه أخته السيّدة ليلى علي الموسوي تقصُّ رؤياها قائلة:

قبل استشهاد السيّد عباس (رضوان الله عليه) رأيته على تلّة من تلال الجمهوريّة الإسلاميّة، وهو يحمل درع النبي داودعليه السلام ويقول: **«مَنْ يريد أن يكون جنديًّا من جنود الإمام المهديّ عجل الله فرجه، فَلْيتمسَّكْ بهذه الدرع».**

وهذه أخته السيّدة هناء الموسوي تبوح برؤيا تتجاوز الجهاد إلى الاستشهاد، فتقول:

ـ رأيته في مكتبه، وبحرٌ وراءه، فجأة! هاج البحر.. فوقف السيد، فضربَتِ الأمواجُ ظَهرَه... وإذا بالماء يتحوّل إلى دماء...

فلمّا قصدَتْهُ في المنزل، أخبرَتْهُ بذلك الحلم، فنظرَ إلى أمّ ياسر مبتسمًا ثمّ حنى رأسه راضيًا، منتظرًا!.

أمّا السيّدة أمّ ياسر فقد كانت ـ منذ بداية حياتها الزوجيّة ـ تتنشّق عطر الشهادة من أنفاس زوجها. ولكنّها، في أيامها الأخيرة، أخذت تعيش حالة الاستشهاد... وتُصِرُّ على أن تكون مع السيّد في تحرّكاته الخطيرة... وكان هاجسَها أن يُستشهدَ معهما أكبر عدد

من أولادهما الأحبّة لتَضمن لهم الجنّة... فكم سُمِعت بعد الصلاة، تدعو ربّها قائلةً:

ـ أللهمَّ ارزق ولدي ياسر الشهادة بين يديك. وكما استقبلَتْ سيّدتي الزهراء عليها السلام ولدها الحسين عليه السلام مفصول الرأس عن الجسد، أللَّهمَّ ارزقني أن أرى ولدي ياسر شهيدًا مفصولًا رأسُه عن جسده!.

لم تكن خائفةً من الموت، بل كانت تطلبه وتسعى إليه لتفوزَ بكلتا الحُسنيَيْن: النصر والشهادة.

ولكنَّ ما كان يؤلمها ويؤرّقُ أيامها ولياليَها هو وضع ولدها «محمد»إذ كان عاجزاً عن النطق، ويحتاج إلى رعاية دائمة على مدار الساعة حتى ينام... بسبب حالته هذه كان الجميع يحنّون عليه ويسمحون له أن يفعل ما يريد متحمّلين مشاكساته البريئة وحركاته الطفوليّة التي لم تكن، دائمًا، تُحْتَمَل.

وكان السيّد عباس (رضوان الله عليه) يُقدّر لزوجته تعبها، في الحوزة، إدارةً وتدريسًا، وفي البيت، رعايةً وخدمات... بدون مساعدة من أحد، في حين أنَّ الاهتمام بولدها محمد ـ لوحده ـ يحتاج إلى رعاية خاصّة وخادم شديد القوى...

وقد اكتشفَ السيدُ ذلك، خصوصًا عندما شجَّع زوجته، ذات يوم، على الذهاب إلى طرابلس لتُلقي كلمة في احتفال نسائيّ عن

شخصيّة المرأة المسلمة ودورها في الجهاد ونهضة المجتمع . وعندما حاولَتِ الاعتذارَ بسبب حاجة ابنها إليها، إذ ستطول غيبتُها، يومئذ، طمأنها السيّد بأنه باقٍ طيلة النهار في المنزل، ليقوم بخدمته ورعايته، وأكّد لها بأنه سيكون منها خيرَ بديل.

وعانى السيدُ، ذلك اليوم الطويل، الأمرَّيْن من حركات ولده الصغير، ورَمْيِه الطعامَ على الأرض، وتلويثِ ثيابه وأغراضِ المنزل... فقال سماحتُه:

«لكِ الله، يا أُمّ ياسر، كم تتحمّلين داخلَ البيت وخارجَه!».

هذا هو الأمر الوحيد الذي كان يشغل بالَها، وهي تستعدُّ للشهادة، فقد سمَعْتها قريبتها السيّدة منيرة الموسوي أخت السيّد عبّاس تبكي وتقول:

ـ أنا لا أستطيعُ أن أعيشَ لحظة واحدة بعد السيد... فهو لم يقُلْ لي كلمة واحدة تزعجني خلال حياتنا معًا. فكيف أَحتمِلُ فراقه؟!. ولكنّ الذي يؤلمني هو مصيرُ ولدي محمد... أنا الآن أمامه، أخدمه برموش عينيّ... وأحتمل ما أحتمل... فمَنْ سيخدمه بعدي ويرعاه؟!. لكَ الله، يا ولدي.. لك الله!.

إنَّ جوَّ الشهادة هذا الذي عاشته السيّدة أُمّ ياسر، ملَكَ عليها وعيها، وقد انتقل من حالة الوعي، ليستقرّ في اللّاوعي، فيستحوذَ

على وجدانها وكيانها جميعًا، صاحيةً نائمة...

فإذا بها ترى، في ذات ليل، رؤيا... وإذا بها تقصّ رؤياها على الشيخ حسين كوراني، بوساطة السيّد عبر الهاتف... وفحواها أنّها كانت ذاهبة مع زوجها وبعض أولادها، إلى النبي شيتعليه‌السلام... وعلى الطريق رأت طائرة تهبط وتتحوّل إلى سيّارة «فولز»... فنزل منها جنود إسرائيليّون، وأقاموا حاجزًا، ثمّ أخذوا قلادة كانت معها.

وهنا، سألتِ الشيخَ عمّا ترمز إليه هذه القلادة الثمينة، الزوج؟ أم الإبن؟. فقال لها الشيخ: ادفعي صدقة، وتوكّلي على الله، خيرِ حافظ!.

أمَّا السيّد عباسقدس‌سره فدمعت عيناه لهذه الرؤيا، وأيقن بأنّ إنزالًا جوّيًا سيؤدّي إلى استشهاده!.

في رحاب الله...

كان الجنوب، عند السيّد عبّاس (رضوان الله عليه) ثالثَ القِبلتَيْن، يحِجّ فيه إلى مواقع الجهاد المقدّس في سبيل الله، ويعتمر بين أضرحة الشهداء، إذا عزّت عليه أرضُ البيت الحرام، حاجًّا ومعتمرًا!.

وكلّما يمّم شطر الجنوب رأى نفسه شهيدًا، وهيّأ نفسه روحيًّا لملاقاة الأحبّة.

وعندما وضع المرافقون خيمةً فوق سيّارته في بعلبك، قال لهم:

ـ اطمئنّوا، لن أُستشهد إلّا في الجنوب. ولن تذرف أُمٌّ دمعةً على ولدها بسببي!.

فللّه!. كيف تأتّى له هذا اليقين؟!. وأنّى له تلك الطمأنينة ؟!

وكأنه ﷺ ما أحبّ أن يغادر هذه الدنيا قبل أن يطمئن عن الناس ويُخفّفَ عن الفقراء والمستضعفين، ويخدمهم ما وسِعته الخدمة، فما زال لهم في سُوَيْداء قلبه حُبّ كبير ونفع عظيم، عملاً بالحديث الشريف «**الخلق كلّهم عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله**».

وعليه، ففي أيّام البرد والصقيع من شهر شباط عام ١٩٩٢، قام السيّد بجولاته الكثيرة على الناس المهجّرين في وادي أبو جميل، حيث الأبنية متصدّعة ويسقط البعض على ساكنيها..كما شملت جولاته منطقة برج البراجنة والرمل العالي والليلكي، ومنطقة الغدير وحيّ السلّم والعمروسيّة... وخاض سماحته في الحفر والمستنقعات ليصل إلى بيوت الناس الغارقة في الفيضانات والأمطار الغزيرة، خصوصًا فيضان نهر الغدير، والأمطار والسيول الجارفة في العمروسيّة حيث أُتلفت بيوت السكّان وممتلكاتهم...

قدّر الناس الطيّبون للسيد زيارته لهم واهتمامه بهم في ذلك الطقس الرديء معرّضًا نفسه وأخوانه للخطر... فراحوا، في كلّ مكان زاره، يأخذونه بالأحضان ويقبّلونه ويدعون له بطول العمر قائلين:

ـ أنـت تزورنا يا سيد، في أحيائنا وبيوتنا، وتُبلسم جراحنا ؟!.

أمّا هو ـ وقد رأى الناس غرقى والأطفال ترتجف من البرد ـ فكان يطيّب خاطرهم ويخفّف عنهم ويَعِدُهم بمساعدات قريبة. وعلى نهج الإمام الخميني{ الذي كان يقول لشعبه وأُمّته: «أنا لكم خادم»، قال السيّد عبّاس لشعبه: «سنخدمكم بأشفار عيوننا» !.

كان ذلك يوم الجمعة في الرابع عشر من شباط عام ١٩٩٢، أي

قبل يومين فقط من النبأ العظيم.

وفي خضمّ زيارته لتلك المناطق المنكوبة، تناهت إلى سمعه أخبارالكوارث في مناطق البقاع والجبل حيث انهمرت الثلوج بغزارة فطمرت البيوت وقطعت الطرقات. فقال سماحته لمرافقيه وإخوانه في الحزب:

ـ لقد غطّى الثلج مناطق الجبل وبعلبك والهرمل... والناس تموت، وعلينا إنقاذهم... وهذه مسألة لا تحتمل الانتظار...

فلمّا قالوا له:

ـ لامال لدينا، وإمكانيّاتنا ضعيفة...

راح يسعى بكلّ جهده لتأمين المال والغذاء والجرَافات لإنقاذ الناس من نكبتهم.

في نهاية هذا اليوم الطويل والشاقّ كان السيّد قد أُرهق أيّما إرهاق... لم تحتمل صحّته كلّ هذا الشقاء برغم تجلّده وصبره... فقد عرفنا كم ينام... وعرفنا ماذا يأكل لتغذية هذا الجسم الذي يحمّله من هموم نفسه ما لا يُطيق... فوقع مريضًا، ممّا استدعى إحضار طبيب إلى الأمانة العامّة.

وصف له الطبيب ثلاثة أدوية، فشطب دواءين، وأبقى على الثالث لأنه دواء للسعال رخيص!... وقد كان يحتاج إليه لظرف

آنيّ هو تَجْلِيَةُ صوته، وربّما لمكافحة الالتهاب، ليتمكّن بعد يومين، من الذهاب إلى جبشيت فيصعد المنبر ويخطب في الناس... ولولا ذلك لألحقَ هذا الدواء الثالث بأخوَيْه!.

دواء رخيص للسعال، فقط ليتمكّن من الكلام وهو ذاهب في سبيل الله، بحسب تعبير السيّد يوسف محمد عباس.

خلال فترة رقدته في السرير، كان السيّد كدأبه دائمًا ـ يُردّد كلمات رُوِيَتْ على لسان الإمام الحسينعليه‌السلام: «إلهي، تركتُ الخلق طُرًّا في هواكَ، وأيتمت العيال لكي أراك، فلو قطّعوني بالسيف إرباً ما مال القلب إلى سواكَ... إلهي، وفيتُ بعهدي...».

وفي صلاته كان سماحته يدعو ربّه أن يرزقه شهادةً لا نظيرَ لها، يُقطّعُ جسدُه فيها إرباً إرباً... ويقول: «لا تُبْقِ عضوًا إلاّ أخذْتَ حقّك منه».

ولّما دنت ساعة الشهادة ازدادت نفسه رقّةً ودماثة وشفافية... وبلغ الصفاء في روحه حَدَّه الأقصى، فراحت الرؤى تَشِفُّ له في نومه ويقظته... فتراءى له ولده الصغير حسين مذبوحًا بين يديه، كما تؤكّد أخته السيّدة هناء الموسوي. فاغتبط بذلك إذ رأى نفسه في موقف الإمام الحسينعليه‌السلام في كربلاء، قاذفًا دم طفله في السماء، وهو يقول: «الّلهمَّ خذ من دمائنا حتى ترضى...» ثمّ يقول:

«هَوّنَ عليّ ما نزل بي أنه بعين الله!».

وشعرت زوجة السيّد بدنوّ الأجل... إذ رأت جبَّتَهُ البيضاء الناصعة كأنها كفنٌ يلفُّه ويدثّرُه... ورأت جسده المرهق أشبه بنعش تتحرّك به، بتثاقلٍ، قدماه... فخشيت ألاّ تلحق به، في موكب الشهادة... فقالت له:

ـ أنا لا أستطيع أن اعيش بعدك لحظة واحدة، يا سيد.

فأجابها بابتسامة حزن ورضى، كما تؤكّد ابنته بتول:

ـ إطمئنّي، لن أُستشهد بدونك... فلا أريد أن يحترقَ قلبُكِ عليّ.

مساء يوم السبت في الخامس عشر من شباط، قال له الأخوة والمرافقون:

ـ أنت مريض، يا سيد، والطقس سَيّئ، فلن نستطيع الذهاب إلى جبشيت لحضور الاحتفال بذكرى الشهيد الشيخ راغب حرب ﵀.

فنظر إليهم باستغراب وقال:

ـ كيف أُوَفّرُ نفسي في ذكرى من لم يوفّر نفسه؟!. وكيف سيكون وقع غيابي على الناس؟!.

لكنّهم ألحّوا عليه لإقناعه بالمكوث في داره. وظنّوا أنّ إلحاحهم

قد أثمر وأنّ سيّدَهم قد اقتنع... فباتوا ليلتَهم على أمل أن ينهضوا صباحًا بلا عمل!.

صباحَ الأَحد في السادس عشر من شباط، نهض السيّد باكراً، موفور الصحّة نشيطًا، كأنْ لم يكن به بأس، ولم يَثْقُلْ به مرض... فأيقظ زوجته للصلاة. وقد كانت ـ صباحئذ ـ مريضة منهكة القوى، كأنّما هدّها مرض زوجها... ثمّ قال لها: «هذه هي الفرصة التي كنتِ تنتظرينها... وهذا هو اليوم الذي تتوقين إليه»!.

فنهضَتْ متعبةً من سريرها، فتوضّأت وصلّت، وراحت تُعِدُّ نفسَها لمرافقته في سَفْرته...

ثمّ التفت السيّد إلى أولاده فأيقظهم وراح يشجّعهم على مرافقته ليفوزوا مع والدَيْهم بالشهادة، ولا يتحوّلوا بعده أيتامًا وأكّد لولده ياسر بأنّها فرصة العمر، ولن تتكررَّ ثانيةً.

لكنَّ ياسر كان مريضًا، ذلك الصباح، كأُمّه، وحرارته مرتفعة، فاعتذر عن الذهاب... وراحت أمّه تطبّبه وتُقدّمُ له العلاج اللازم قبل رحيلها، وتؤمّن له من الرعاية والحنان ما سيتَّخذه زادًا روحيًّا لمستقبل الأيّام.

أمّا الصغير حسين فقد جاء رفيقُه حسين علي الحكيم، باكرًا، ليصطحبه إلى منزله فيلعبا سويًّا، كعادتهما. فنظرَ حسين إلى والديه

وهما يَهُمَّانِ بالمغادرة وينتظران قراره.. ثمّ نظر إلى صاحبه مبتسمًا وقال:

ـ لا، هذه المرّة، سأذهب مع أمّي و أبي.

وإذا بالمرافقين يستغربون قرار السيّد بالذهاب إلى جبشيت، بعد ظنّهم أنّهم أقنعوه بالعدول عن الذهاب ليلة أمس. وإذا به يكرّر عليهم مقولة الأمس: «كيف أوفّر نفسي في ذكرى من لم يوفّر نفسه؟!».

ثمّ انطلقَ إلى جبشيت والقضاءُ يرفرفُ فوق رأسه الشريف.

سبقَه الناسُ جماعاتٍ غفيرةً إلى حسينيّة البلدة. وما إنْ دخلَها حتى تحلّقَ الناس حوله يسلّمون عليه ويقبّلونه... وما دارَ في خَلَدِهم[1] أنّها ستكون القبلاتِ الأخيرة...

ثمّ صعِدَ المنبرَ وراح يخطب في الناس ببلاغته وذَلاقة لسانه المعهودة. وراح أصحابه ومرافقوه ينتظرون أن يسمعوا دويّ تلك القنبلة التي وعَدَهم، على الطريق، بتفجيرها في الاحتفال...

فإذا به ينتقدُ التقصيرَ المريبَ للحكومة بإهمال الناس، و تَرْكَهُم لمصيرهم في أيّام الشدَّةِ و البؤس.. فلم يَعُدْ مُحْتَمَلاً تقاعسُ الدولة عن القيام بواجباتها و خدمة شعبها المحروم.. وكانت القنبلة: «كما

(١) الخَلَدُ: البالُ والقلب.

قاومنا الاحتلال سنقاوم الإهمال» !.

بعد الإحتفال توجّه السيّد مع الناس إلى ضريح الشهيد راغب ﵀ لقراءة الفاتحة عن روحه الطاهرة.

هناك، مسحَ السيّد بلاطَ الضريح بكفّه المباركة، فأخذ بعض الغبار ومسحَ به وجهَه الشريف ثمّ قال لإبن الشهيد راغب، و قد كان واقفًا إلى جانبه: «أتُوصي شيئا لوالدك ؟».فبكى الشابّ و دمعت عينُ السيد..

وفي منزل الشهيد راغب (رضوان الله عليه) كان السيّد يصلّي و يدعو.. وكان مرافقه فياض خير الدّين على الشرفة حارسًا.. فناداه السيّد قائلًا: «افتح النافذة، فقد ضاق صدري» !.

وبعد الصلاة توجّه السيّد إلى سيّارته لِتُقلَّه في طريق العودة.. وكان الطيران الإسرائيليُّ، ساعتئذٍ، يسرح مُدَنِّسًا سماء الجنوب. فطلب المحبّون إلى السيّد أن يتأنّى فلا يبرحَ جبشيت، ولكنّه على موعد مع القدر... وهو لا يفِرُّ من لقاء ربّه، بل يسعى إليه سَعْيَ الحبيب إلى الحبيب... و اللهُ لا يُخْلِفُ الميعاد...

وصل السيّد إلى سيّارته... و قبل أن يستقرَّ فيها، حاول مرافقُه فيّاض أن يُثنيَه عن عزمه في اللحظات الأخيرة، فقال له:

ـ أنظر، يا سيّد إلى الطائرات في الجوّ.

فنظر السيّد إلى السماء، و أحسّ بأنّ القضاء باتَ يرفرفُ على علوّ منخفض، فأجاب مرافقَه :

ـ نحن نعذّبُهم معنا.

ثمّ نظر إلى ولده حسين و قال له :

ـ أَخائفٌ أنت من الطّائرات؟ لا تجعلْها تخيفُك. إمسك حجرًا واضربها به!.

ثمّ طلب السيّد شربةَ ماء... فشرب... وانطلق إلى الشهادة و لسان حاله يقول: «وداعًا جبشيت»...

في طريق العودة غيّر المرافقون الخطّة الموضوعة، فسلكوا طريقًا آخر باتجاه «تفاحتا»، للضرورة الأَمنيّة.

عندئذ شعر ولدُه حسين بالعطش، فقال له :

ـ أنا عطشان، يا أبي. أريد أن أشرب.

فأجابه:

ـ مَهْلًا، سرعان ما نَصِلُ وتشرب...

لم يفهم أحد مغزى هذه العبارة، كما يقول الشيخ عدنان الربيعي. لعلّه كان يقصد «الكأسَ الأوفى من يد جدّه رسول الله ﷺ التي لن يظمأ بعدها أبدا!».

تُرى، ألهذا دمعت عَيْنَا الإمام الخميني ﷺ، وهو يمسحُ رأسَ الصغير حسين ويقول: «حسين مظلوم»؟!. سيُقْتَلُ عطشان!!.

كان الموكب الأخير للسيّد مؤلَّفًا من أربع سيّارات، و هي على الترتيب: مرسيدس - رانج - مرسيدس (وهي سيّارته) - رانج، كما يشرح مرافقه محمد مصطفى الموسويّ.

وآنَ للقضاء الذي رفرفَ طويلًا فوق رأس السيّد أن يقع !.

فعلى طريق تفاحتا تعرّض الموكب لثلاثة صواريخ أصابَتِ القسم الخلفيَّ من السيّارة الثالثة.. سيّارة السيّد. فاستُشْهد على الفور، هو، وزوجته وابنه، وتقطّع جسده الشريف إربًا إربًا، كما دعا ربّه طويلًا... و نجا مرافقوه بأعجوبة، إذ أُصيبَ البعضُ بحروق وإصابات طفيفة، سرعان ما شُفِيَ منها!. ولم تذرفْ أُمٌّ دمعةً على ولدها بسبب السيّد كما وعد مؤكّدًا ما ألهمَه به ربُّه !.

لم تَسَعْهُ الدنيا على رُحْبِها، كما يرى سلطان أسعد، فقد جاهد حتى الشهادة... وصل إلى مرحلة شعَرَ فيها أنّه قدَّمَ لشعبه كلّ شيء و لم يَبْقَ إلّا دمُه الغالي، فلم يبخَلْ به على أُمّته، على الدرب الحسينيّ... لقد فاز ورَبِّ الكعبة...فشُلَّتْ أيدي الجُناة!..

غابَ الحبيب...

«أللهمَّ، تَقبَّلْ منّا هذا القربان!»، عبارة قالتها ـ لمّا سمعت الخبر الفاجع ـ بتول عبّاس الموسوي... وصلّت ركعتين شكرًا لله، كما فعل والدها لدى فَقْدِ والدته... إذ صلّى ركعتين وقرأ لها القرآن والدعاء، وشكر ربّه على إنفاذ حكمه وقضائه.

«أَللهمّ، تَقبَّلْ منا هذا القربان!»، أجمل عبارة يُشيِّع بها الحبيبُ حبيبَه. وهو إذ يودّعه الوَداع الأَخير يُوْدِعُه اللهَ خيرَ حافظ، ويسلّم له أمره مؤمنًا صابرًا، وراضيًا محتسبًا... ولسان حاله يقول:

إنْ كانتِ الأرضُ لم تَضْمَنْ سلامتَه

ففي السماءِ إلهُ العرشِ يحميهِ[1]!

أمّا ياسر فلم يكن أقلَّ إيمانًا أو تصبّرًا من أخته... ولكنّه ذُهِلَ للفاجعة الأليمة، وطرح سؤالًا على من نقل إليه ذلك الخبر:

«طيّب البابا استُشهد، والماما وَيْن؟!».

لم يبقَ أحد في الدار إلاّ بكى بحرارة لهذا السؤال... ماذا

(١) من قصيدة لكاتب هذه السيرة قالها في حفل تأبين أحد الشهداء.

يقولون له؟

استُشهدَ والدك... واستُشهدتْ أُمُّك... واستُشهدَ أخوك الصغير؟!

إذا فقدَ الطائرُ جناحًا واحدًا فهو يعجز عن التحليق وتضيق به سُبُل العيش... فكيف به إذا فقد الجناحين معًا... وفقد معهما قطعةً من قلبه؟!

وأمّا السيّد علي الموسوي، والد السيّد الشهيد، فقد صدمه الخبر وشلّ قدرته على التفكير... فتهالَك مذهولًا على عتبة المنزل، والهواءُ صقيع... فلم يلتفت إليه أحد حتّى كاد يتجمّد من البرد... كأنَّ كلّ واحد من تلك الأفواج البشرية التي أمّت الدار يومئذٍ، كان يقول له:

«لا أُلْهِينَّك، إنّي عنكَ مشغولُ»!.

لم ينم السيّد الوالد تلك الليلة، بل ظلّ ساهرًا إلى جانب النعش حتى مطلع الفجر.

كان السيّد عباس (رضوان الله عليه) قد أخذ، في رحلة الحجّ، حفنةً من تربة الإمام المجتبى عليه السلام، من جوار قبره في الحجاز، وأوصى بأن توضعَ هذه الحفنةُ المقدّسة في كفنه الشريف قبل مواراته جدَثَ الرحمة.

ويوم التشييع تهافتتِ الألوفُ المؤلَّفة من كلّ القرى والبلدات... رغم الطقس الرديء والمطر العاصف، على بلدة النبي شيت، تهافُتَ الفَراش على النور... أو تهافُتَ العِطاش على منهل العزّة والإباء!.

كلّ عين، كانت قريرةً بوجوده سعيدةً بفضائله وخدماته... بَكَتْهُ بحرارة يوم وداعه.

لم يبق يتيمٌ مسح السيّدُ رأسه وأكرمه إلاّ أحسّ بأنّه ـ الآن ـ تيتّم... الآن فقد والدَه وحبيبَه الذي طالما بكى لبكائه وجوّعَ أولادهَ لإطعامه..

زحفت الجموع المتماوجة لتعبّر عن حبّها وإخلاصها لسيّدها. وتُجدّدَ البيعة له ولخطّه المقاوم... لقد تعلّمت منه الوفاء والحنين والحُبَّ وعشقَ الأرض.. وها هي تبادله ـ اليوم ـ عرفانًا بعرفان، ووفاءً بوفاء... ولو أمكنها أن تفتديَه بأرواحها لما تهاونت... ولكنْ، هيهات... وقد سبَقَها إلى الفداء... فاستُشهدَ مع زوجته ونَجْلِه دفاعًا عن وجودها وكرامتها... فما كان من هذه الجموع الوفيّة إلّا أن قدّمت لنهج السيّد عبّاس أبناءها ليسيروا في خطّ حزب الله، على درب الشهادة والنصر...

وإذا بدم السيّد يسري حيويّةً في شرايين الأمّة... فمَنْ كان شاردًا أو تائهًا عن الحالة الإسلاميّة فقد آوى إلى حضنها الدافىء...

فهل حقّاً غاب الحبيب؟. ألم يصفع دمُه العدوَّ بقوّة ـ بحسب تعبير الشيخ علي فرحات ـ حين جعل العالم كلّه يتضامن مع المقاومة؟!. أليس سيّد شهداء المقاومة حاضرًا أبدًا بكلّ أعراس النصر؟!. أليست روحُه خفَّاقةً في راية التحرير؟!.

ثمّ، ألم يَصْدُق السيد، كعادته، عندما قال: «إنّ هذه الحالة المتردّية لا يرفعُها إلّا دماءُ عِمامة»، وقد أشار إلى عِمامته الشريفة؟!.

شعلة المصباح...

قال السيّد حسن نصر الله (حفظه المولى) ردًّا على الجريمة الجبانة النكراء: «سيدفع العدوّ ثمن حماقته غاليًا». ويصدُق وعدُ السيّد فتقصف مدفعيّةُ المجاهدين مستعمرات العدوّ بستين صاروخًا انتقامًا للدماء الزكيّة التي جُبِل بها تراب الجنوب الأبيّ... ويصدُّ المقاومون الأبطال تقدّم آليّات العدوّ على مثلّث كفرا ـ صربّين ـ حاريص، مُوقِعين في صفوفه عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى، بينهم بعضُ الضبّاط باعتراف العدوّ نفسه.

بعد ذلك حصلت عدّة معارك طاحنة على مدى ثماني سنوات ندم فيها الإسرائيليّون، فعلًا على حماقتهم التي ارتكبوها في ١٦ / ٢ / ١٩٩٢... لقد تصوّروا أنهم تخلّصوا سريعًا من السيّد عبّاس الذي كان يمثّل خطرًا عظيمًا عليهم وعلى جميع طغاة العالم.

ففوجئوا بأنَّ مصباح السيّد عبّاس يزداد توهّجًا وإشعاعًا... وذُهِلوا عندما وجَدوا الأمينَ العامَّ الجديد لحزب الله سماحة السيّد حسن نصر الله (حفظه الله) لا يقلُّ عن سَلَفِه في البطولة والجهاد وفي الصلابة وقوّة العزم، وفي الجِدّيَّةِ المطلَقة والتخطيط والتصميم

على مقاتلة العدوّ... وهذا كلُّه ما تخاف منه إسرائيل وتعتبره الخطر الأكبرعلى وجودها!.

أَهَمُّ تلك المعارك الطاحنة التي حصلت ببَركة دماء سيد شهداء المقاومة ودماء بعض أهله، معركتان كبيرتان:

الأولى عام ١٩٩٣، وقد نتج منها اتفاق تموز الذي فرضَتْه تضحياتُ المقاومين على العدوّ، ويقضي بحقّ المقاومة في أن تضرب المدنيّين في إسرائيل إذا تعرّضت هي للمدنيّين في لبنان!... وأَذعن العدوّ!.

والمعركة الكبرى الثانية كانت عام ١٩٩٦ التي مهّدت للنصر المؤزَّر عام ٢٠٠٠، عام الإندحار الإسرائيلي!.

لقد مرّ السيّد عباس(رضوان الله عليه) في وجدان الأُمّة كالحلم... فأرادت إسرائيل باغتياله أن تغتال هذا الحلم، وأن تمحوَه من الذاكرة... فإذا به يتحوّل إلى كابوس مرعب يجثُم على صدور قتَلَةِ الأنبياء والصدّيقين.

أرادت أن تطفىء شعلةَ المصباح. فإذا بالشعلة تنفجر في وجهها براكينَ غضب وثورة تحرق حُمَمُهَا «عناقيدَ الغضب»!. وتهدّدُ كيانهَا باستئصاله من الجذور، قائلة لزعيمها القديم الجديد:

«بيريزُ، نحنُ وأنت والتاريخُ أحلامٌ ودَمٌ... فحذارِ أيامَ

الغضبْ !»[1].

يقول سماحة الإمام القائد علي الخامنئي(دام ظلّه الشريف) لوالد السيّد عبّاس (رضوان الله عليه):

«كان الناس يظنّون السيّد عبّاس أمين عامّ حزب الله فقط، ولكنّه كان ركنًا للعالم الإسلاميّ كلّه».

ويقول سماحته: إنَّ السيّد عبّاس قد أحيا كربلاء من جديد... فشهادتُه لم ينَلْها إلَّا الإمامُ الحسين عليه السلام... وقد أوجدَ هذا الدمُ ثورةً جديدة في هذا العالم!.

(١) من قصيدة قالها كاتبُ هذه السيرة على أثر العدوان الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٩٦.

الجرحُ والذاكرة...

كان الدكتور علي الحكيم جارًا للسيد عبّاس في بعلبك... آنِسًا بمساكنته في الحيّ. وكان ولدُه الصغير حسين الحكيم من أتراب طفل السيّد الشهيد حسين، بل رفيقه المفضّل، كما تقدّم في هذا الكتاب. وكان يحبّ السيّدَ كثيراً والسيد يحبّه ويكرمه ويقبّله كما يُقَبّلُ ولده، ويدعوه دوما إلى الطعام...

يقول حسين الحكيم: «كنت انتهز فرصة وجود السيّد عبّاس في بيته حتى أذهب لألعب مع رفيقي حسين، لأنّني كنت أرتاح كثيرًا للسيد فهو أبٌ للجميع، عطوف حنون... يبتسم لي كلّما رآني ويعاملني بالحسنى كولده.

أمّا الآن فقد غاب صديقي حسين إلى الأبد، وغاب السيّد الطيّب والدُه، وغابت السيّدة الطاهرة أُمُّه... فلم يعد لي مأرب في الذهاب إلى هناك... فأحبّائي قد رحلوا...».

لم يعرف أحد السيّد عباس، أو رآه، أو لقيه ولو لمرّة واحدة، إلّا عشقه لدماثة أخلاقه وعذوبة حديثه وطيب عشرته... وتمنّى لو يتكرّر اللقاء...

ها هو الداعية فتحي يكن ﷺ يتحسَّرُ على فقده قائلًا: لقد زارني السيّد أكثر من عشر مرّات... ولم أزره ولو مرّة واحدة... لقد أسرني بشخصيَّته المتواضعة!.

أمّا الشيخ هاشم محمد سعيد منقارة، من طرابلس، فقد حزن كثيرًا لفقد السيّد وراح يُسهبُ في وصف شمائله العطرة: «كان السيّد عبّاس صادقًا مخلصًا، زاهدًا متواضعًا، قريبًا من القلب، أنيسًا عالمًا ورِعًا، يتحرّى أوامر الله. كان همّه الآخرة، ولعلّها أكبر همّه. لقد جمع الله شمله محبًّا ومحبوبًا عند الكلّ. ولهذا استطاع من خلال هذه الصفات أن يبني عملًا نرى الآن نتائجه الباهرة!. هو من أمّة قال فيها الحبيب محمد ﷺ:

«الخيرُ بي وبأمّتي إلى يوم القيامة». فمن السيّد عبّاس إلى السيّد حسن إلى كلّ الأسياد... هذه الأمّة لم تَخْلُ من المجاهدين ولن...».

وأمّا ذاكرةُ الإخوة الفلسطينيّين فلم تزل مخضَّبةً بدم الجراح، منتشيةً بعطر الشهادة... فهاهو الشيخ بسّام كايد يعترف بأفضال السيّد على القضيّة قائلًا: «لقد خسرنا سندًا حقيقيًا للقضيّة الفلسطينيّة».

وهو ذا القيادي خالد عبد المجيد يقف مذهولًا أمام الفاجعة ويتساءل بحُرقة: «هل أصبحنا بعد السيّد عباس، أيتامًا؟!».

وأمّا قادة الفصائل الفلسطينيّة العشرة التي عمل السيّد على توحيدها ـ وما زالت حتى اليوم موحّدة ـ فيجتمعون عند ضريح السيّد كلَّ عام، ويقولون:

«أللهمَّ اشهد أنَّ الشخص الوحيد الذي وحّدنا هو السيّد عبّاس الموسوي!».

ويَطيبُ لنا أن نُطَمْئِنَ الإخوة الفلسطينيّين بأنّنا أبناءُ جُرحٍ واحد، وأنّ جرحنا معًا هو امتدادٌ لجراح الأمّة عبر التاريخ... إنَّ جلاّدنا واحد مهما تعدَّدت أشكاله وصُوَرُه وأدواته... هو الاستكبار العالمي متمثّلًا، اليوم، بأميركا التي بنَتْ مجدها الدنيويَّ الزائل على جماجم الملايين من الهنود الحمر... وربيبَتِها إسرائيل التي ورِثَتْ أسوأ الأخلاق من أسلافها عبيد مصر وآشور وبابل!.

فاطمئنّي، يا أيتُّها الحبيبة فلسطين، لقد بدأ السحر ينقلب على الساحر... وها هو طابخُ السُّمّ يأكلهُ...

إنَّ لكِ في لبنان أبناء كرماء، وإخوةً أوفياء.. قد رضعوا لِبانًا طَهورًا... وحملوا السيف ذا الفقار... تبدو بوارقه في السبعةِ الشُّهُبِ...لقطع رأس الأفعى مع ذيلها...

إنّ طفل الجنوب الذي روّع ببرتقالته الصهاينة ـ وقد حَسِبوها قنبلة ـ ليَنصُرُ الأطفال من بنيكِ وفي أيديهم حجارةٌ من سِجّيل.

لقد بَنَتْ إسرائيلُ قوّتها على قاعدة بنود «بروتوكولات حكماء صهيون»، خصوصًا البندَ القائل: «إنَّ كلَّ اليهود في العالم لخدمة اليهودي الفرد، واليهودي الفرد لخدمة كلّ اليهود في العالم».!

فها هم اليهود يجتمعون على باطلهم، بينما عرب الجاهليّة في الأنظمة الحاكمة يتفرّقون عن حقّهم!

وإذا بصوت السيّد عبّاس يصوّب البوصلة نحو العدّو الحقيقيّ المشترَك، فيدعو ويعمل مع كُلّ المخلصين لكي يشعر كلّ إنسان في هذه الأمّة، مسلمًا كان أو مسيحيًّا، بأنه جزء من هذا العالم الإسلاميّ الرَّحْب وينبغي أن يكون محورَ اهتمام جميع المسلمين في كلّ أنحاء العالم!.

وإذ مضى السيّد عبّاس شهيدًا فلم تتوقَّفْ مسيرة الأُمَّة التي أسَّس لها وروّاها بدموعه ودمه... بل اتسع بحرُها فازدادت أمواجُها هديرًا وأفواجُها زئيرًا... وأَهدابُها متعلّقةٌ بمنارتها المتجدّدة، عينَيْ السيّد حسن نصر الله (حفظه المولى)، لهدايتها في صراعها التاريخيّ ضد أعداء الله والدين والنبيّين..

بقاء الروح...

في ذكرى أسبوع الشهيد السيّد عباس(رضوان الله عليه) احتشد أكثر من مئتين وخمسين ألفًا من محبّيه وأنصاره وأسرى حبّه وخدماته، للإحتفال مجدّدًا بعرس الشهادة وإحياء مسيرة النضال على نهج أهل البيت عليهم السلام، وإبقاءً لروح الجهاد متّقدة في كيان هذه الأمّة التي أبت السجود إلّا لله العليّ القدير.

وقام الخطباء يردّون بعض الوفاء لسيد شهداء المقاومة الذي ما بَخِلَ في حياته بتقديم السعادة للمحرومين، والحنان للأيتام والمستضعفين... وتوّج عطاءاته وخدماته ببذل دمه الشريف ودم زوجته ونجله الطاهرَيْن، فداءً لشعبه وأمّته.

فمن كلمة الإمام السيّد القائد علي الخامنئي(دام ظلّه الشريف) (ألقاها نيابةً عنه عضو مكتب القيادة حجّة الإسلام علي أصغر حجازي):

«أتوجّه بتعازي القائد وتبريكاته إلى جميع مسلمي لبنان، وعناصر المقاومة الإسلاميّة، فبصبركم ونشاطكم في مواجهة العدوّ

والاستكبار، وبتقديمكم قائدًا كبيرًا مع زوجته وابنه، تنالون أجرًا كبيرًا، لأنكم بذلك أحييتم كربلاء من جديد... لقد أصبحتم قدوة ورمزًا لكلّ أحرار العالم...».

ومن كلمة آية الله السيّد محمد حسين فضل الله ﷺ الذي عرف سماحة السيّد عباس، وقدّر جهوده المخلصة، وساعده في إنشاء الحوزة العلميّة:

«عاش اللهَ في قلبه فكان إنسانَ الإيمان، وعاشت الرسالة في وجدانه فكان إنسانَ الإسلام، وعاشت المسؤولية في وعيه فكان إنسانَ الحركة، وعاشت الأُمَّة في كلّ كيانه فكان إنسانَ الثورة...

أيّها المجاهدون الذين رفعتم رؤوسنا عالية، وأعطيتمونا بعض الحرّية والإيمان والإسلام والإخلاص لله. إنّنا نتعلّم كلَّ هذه الدروس على تلال كفرا وياطر، وفي شوارع القدس والخليل...».

ومن كلمة العلاّمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين ﷺ، وهو من عرف السيّد عبّاس عن كثب، وساهم كذلك في بناء الحوزة الدينية:

«السلام على السيّد الشهيد عبّاس الموسوي وسائر الشهداء...
والحديث عن الفضائل الشخصيّة للسيد عبّاس الموسوي من نافلة القول، بعد أن استشهد في سبيل الله على يد شرار خلق الله. هذه هي الفضيلة، الشهادة هي الفضيلة العظمى التي تصغر عندها كلُّ

فضيلة. ويكفينا في ذلك أن نتذكّر ما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ: «**فوق كلّ بَرٍّ بَرّ، حتى يُقتل في سبيل الله. فإذا قُتِلَ في سبيل الله فليس فوقه بَرّ**».

أمّا فضيلة الشيخ نعيم قاسم الذي كان نائبًا لسماحة السيّد عبّاس في الأمانة العامّة لحزب الله، وكان عَضُدَه ومُعتمَده، فقد قال في مناسبة أخرى:

«لقد افتقدناك أيها السيّد الشهيد المجاهد، يا من أحبّك المقاومون وأحبَبْتهم، وكم واحد عرفك منهم من خلال تربيْتِكَ على كتفه، أو ضمّه وتقبيله قبل الذهاب لعمل ضدّ العدوّ.

لكنّك بشهادتك بقيْتَ حيًّا في ضمير إخوانك، تغذّي المسيرة بسيرتك ومنهجك، وتعطي النموذج الصالح للإقتداء لكلّ المجاهدين الشرفاء...».

كما عَرَفَ سماحتَه فضيلةُ الشيخ حسين كوراني حقّ المعرفة فقال فيه:

«عباس الموسوي فتى متوثّب، بين جَنْبَيْه نفحةٌ من الروح المحمديّة العلويّة، حملَتْه إلى معركة الكرامة يبحث عن سربه... وعصفت بأرض الغريبَيْنِ العواصف، فإذا بالسيد مشرّد... مهاجر إلى أرض الوطن!...

ترك قلبه بجوار جدّه ومضى يَغُذُّ السير في رحلة القرب مختارًا بُراق السفَر في الخَلْق إلى الحقّ...

أيّها الحبيب، أُكْبِرُ فيك... ورَعك... يُسَجِّلُ لك تميُّزُك في فيض حبّك للناس، وبناء الأُسْرة الحميمة، وبساطة العيش، وصلاة الخاشعين».

ويبقى مسكُ الختام، في أسبوع السيّد الشهيد عباس، في ختام كلمة سماحة السيّد حسن نصر الله (حفظه الله):

«سيّدي، أبا ياسر، في ذكراك... نفتقدُ منك الجسَد، ولكنّ روحكَ أشدُّ حضورًا وأقوى فعلًا. ها هي مسيرتك تلتصقُ بشعبك أكثر، كما أحببتَ، تُكملُ حملَ راية الإسلام، تُبلّغه ولا تخشى إلّا الله كما فعلْتَ. تملأ قلوبَ الصهاينة رعبًا، وأرضَ الجهاد دماءَ شهداء كما أوصَيْتَ. ها هي دماؤك، سيّدي، تُزهر في كلّ مكان مجاهدين وثوّارًا ومبلّغين ونُوَّابًا وأجيالًا منذ الصغر تهتِفُ باسمك يا عباس!.

ها هي كلماتُك أصبحتْ رمزًا وشعارًا ومبادىء نسمعها حتى من أفواه الأطفال.

ما غيّبك الموت، ولا تناثر الجسد، فأنت الحاضر أبدًا فينا. وهل يمكنُ أن يفصلَ أحدٌ بين حزب الله واسمِك؟!».

النجمُ إذا هوى!

ما زال عِلْمُ فيزياء الفضاء، أو علم الكونيّات «cosmology» يُتحفنا بحقائقَ علميَّةٍ عن أسرار الكون وعظَمةِ الخَلْق... وهي أسرارٌ غايةٌ في الغرابة وإثارةِ الدهشة حتى الإنبهار!.

ونحن لا نُومِئُ بهذا، إلى ذلك الاتجاه المادّي البحت في تفسير الكون ونشوء الخلق، فإنَّ لنا لَمَندوحةً[1] عن ذلك الصعيد الزَّلَق..

وإنّما نُشير بكلامنا إلى قدرة الله التي لا تُحَدُّ، وإلى خَلْقه الكونَ على أكمل نَسَق وأعجب نظام... فحقّق بهما غاية الإعجاز!. كما وضع سبحانه، قوانين للكون يسيرُ بهدْيِها وينتظمُ بمقتضاها إلى ما شاءت حكمتُه تعالى.

ومن تلك الحقائق والقوانين المدهشة الدّالة على روعة الخلْق وعظَمة الخالق، أنّك تقف، ليلًا، تحت القُبَّة السماوية المرصّعة بالنجوم، فتحسَبُ أنّها كلَّها موجودة، حقيقةً، في أماكنها، وأنّها لا تغيبُ ظاهريًّا إلّا إذا طلعت الشمسُ، أو دارت الأرض دورتها حول نفسها في وجه الشمس... فتكسِفُ أنوارُها أضواءَ النجوم، وتخفيها

(١) المندوحة: السَّعةُ والفُسْحَة. ومعنى العبارة: تَرْكُ الأمر والمَيْلُ عنه.

عن أنظارنا إلى حين...

ولكنّ علماء الفضاء، ومنهم المؤمنون الإلهيّون، يعتقدون بأنّ كثيرًا من هذه النجوم قد تلاشت أو تفجَّرت واختفت إلى الأبد، ومع ذلك فنحن ما زلنا نرى أضواءها التي انبعثت من كُتْلتها منذ ملايين السنين! فنتوهّم أنّها قائمة في أبراجها لمَّا تَزَلْ، وما هي كذلك!.

نعود إلى الآية الكريمة «والنجمِ إذا هوى» لنسأل: هل يُقْسِمُ اللهُ تعالى، هنا، باختفاء النجم ظاهريًا، كُلَّما طلعت شمسُ الصباح، وهي ظاهرة عاديَّةٌ مألوفة؟. أم أنّه، سبحانه، يقسم بشيء أعمقَ أثرًا وأشدَّ خطرًا، وله عَلاقة وثيقة بأحد أسرار خَلْقه المعجِز، عَنَيْتُ «فَناءَ النجمِ إذْ يَسْطَع»، ونشوءَ بديل منه، في ما يُذَكّرنا بقانون «الأَيْض»(metabolism) أو «الدُثور والنشوء» الذي يحكُمُ بناءَ البروتوبلازما في الخلايا الحيّة بعد فنائها...؟.

أليس هذا التشابه العجيب بين القانون الذي يَحْكُمُ النهايةَ في الصِّغَرِ (الخلايا والذرّات)، وذلك الذي يَحكمُ النهايةَ في الكِبَر (النجوم والمجرّات) هو من الآيات العظمى الدالّة على وحدة الوجود واستمراره؟!.

أبهذا القانون الذي ينتظمُ الكونَ بين نهايتَيْه، من أقصاه إلى أقصاه، يُقْسِمُ الله تعالى، في آيته الكريمة تلك «والنجمِ إذا

هوى»؟.

نحن لا ندري، فتلك مسألةٌ تتجاوزُنا لإفتقارنا إلى التخصُّص سواء في العلوم الدينيّة، أو علم كيمياء الخليّة أو فيزياء الكون. وعليه فَقُصَارانا [١] أن نتركها لعلماء الدين الأجلّاء لاستجلاء حقيقتها، والاستفادة منها، إذا أمكَنَ، في التفسير.

ولعلّ القارىء العزيز يسأل مستغربًا: لماذا أثرنا هذه المسألة العلميّة ـ الدينية الشائكة، ما دُمْنا غيرَ قادرين على البتّ فيها، فضلًا عن أنّها باعترافنا ـ تتجاوزُنا بداعي عدم توفُّر الاختصاص؟! وما علاقة هذا الأمر كلّه بسيرة السيّد عبّاس وما نترجِمُ له من شؤون حياته وشُجونها؟!

مَهْلًا، فديتُك! نحن لم نُقْحِمْ هذا الموضوع إقحاما بلا مسوّغ... وإنَّ ما دعانا إلى ملاحظته هو جُنوحُنا، بحسب علم البيان، إلى التشبيه التمثيلي، واعتقادُنا بأنّ السيّد عبّاس كان بحقّ نجمًا ساطعًا فهوى! . لقد تفجّر جسده، وتفتّتَتْ أعضاؤه، وتشظّت خلاياه... ولكنّه لم يَفْنَ ولم ينته...فهذه آثارُه تدلّ عليه، كذلك النجمِ في الثُّريّا...وستظلّ أنوارُه تُشرق علينا وعلى أمّتنا بالرّغم من غيابِ كتلة الجسد.

وها هو السيّد حسن نصر الله(حفظه المولى) يعبّر عن هذه

(١) قُصَاراناٰ: غايتُنا وآخر أَمرنا، وما اقتصَرْنا عليه.

الظاهرة الموسويّة خير تعبير فيقول مخاطبًا السيد: «نفتقد منك الجسد، ولكنّ روحك أشدُّ حضورًا وأقوى فعلًا... ها هي دماؤك، سيّدي، تُزهرُ في كلّ مكان مجاهدين وثوّارًا... ما غيّبك الموت، ولا تناثَرَ الجسد... فأنت الحاضر فينا أبدًا...».

وأنّى نظَرْنا في بحر شعبنا وأمّتنا نَرَ الأخْوة المجاهدين الثوّار كأمواج البحر، بحسب تعبير الإمام السيّد موسى الصدر (أعاده الله مع رفيقيه بخير).

ومن فم العدوّ نُدينُه.. فهذا هو منسّق أنشطته «أوري لوبراني» يعترف قائلًا: إنّ حزب الله، اليوم، هو الأقوى!.

كثيرون يمرّون في هذه الحياة بلا حياةٍ تُذْكَر، فلا يتركون في أهلهم ومجتمعهم أثرًا طيّبًا حتى يُذكَروا به، أو يُحْمَدوا عليه و يَستمطِروا به الرحمة.

وهناك من استُشهدوا أو اجتباهم الله سبحانه إليه، و مازالت كراماتهم صدقةً جارية يفخر بها الأهلون، وتحيا بها الأمّة. وما كان أصدقَ الشاعرَ حين قال:

فَرُبَّ حيٍّ غدا في قومه حَجَرًا

وربَّ مَيْتٍ غدا حيًّا به الحَجَرُ!

فكم عائلة مستورة أعالها السيّد عباس!. وكم طفلٍ يتيم عوّضه

من حرمان أبيه!. وكم كريمٍ زلّت به القدم فأقال له العِثار.. وأعاد الاعتبار لعزيز قوم ذَلّ!.

وللمعاقين نصيبٌ من سماحته غيرُ يسير؛ فهذا أحدُهم في بعلبك كان عُرضة للتهكّم بسبب تخلّفه العقليّ.. فكان ينظر إلى الساخرين منه بغضب و يشير إلى نحره موحيًا إليهم بأنّهم جميعًا يستحقّون الشنق، ولا يستثني منهم أحدًا إلّا السيّد عباس، لأنّه كان، بالرغم من مواعيده ومشاغله يستقبله ويكرمه ويعطيه مالًا فوق حاجته.. وكان هذا المعوّق يبكي كلّ يوم جمعة، إذا لم يَرَ السيّد عبّاس في بعلبك!. وهو إلى اليوم، مقيم على وفائه، فيقصد دائمًا مقام السيّد في النبي شيت، ويبكي ملتاعًا عند الضريح.. ولمّا سأله ياسر، ذات يوم: «لماذا أنت هنا ؟ »، أجابه: «هذا أبي هنا !».

ويروي خليل محمد الموسوي بأنّ هناك شخصًا أخرسَ اسمه «عبدو » من بلدة الخضر، يأتي باستمرار إلى المقام و يهزّ رأسه باكيًا.. فقد كان السيّد يعطف دائمًا عليه، ويقبّله ويعطيه مالًا وطعامًا، ويقول للأخوان: كلّما أتى «عبدو» أدخلوه عليّ، وإيّاكم أن تنهروه، أو يسخر منه أحد!.

فلمّا استشهد السيّد أحسّ «عبدو» باليتم والحرمان.. وهو إلى اليوم يواظب على زيارة مقام السيّد ويبكي قائلًا بلسانه الثقيل: حرام.. حرام!.

وكما كان للسيد عباس ﷺ كرامات في حياته يشهد لها الجميع ممّن عرفه وعايشه، ونسبه لأجلها إلى الترابيّة والربّانيّة.. فقد استمرّت هذه الكرامات، بإذن ربّه، بعد استشهاده؛ فهذا رجل من بعلبك (......) لم يكن متديّنًا أو ملتزمًا.. بل كان مستهترًا بشؤون الدين.. كان، في ما مضى، ينظر إلى السيّد عبّاس فيراه هادئًا متواضعًا، يُطرِقُ إلى الأرض و يذهب إلى الحوزة البعيدة عن بيته يومئذ، عدّة أميال، سيرًا على قدميه.. فأُعجبَ بسماحته وطيب أخلاقه ومزاياه.. فلمّا استشهد تأثّر الرجل كثيراً فبكاه وافتقده.. ثمّ التزم بالدين وحَسُنَ إيمانُه!.

وهذا طفل عمره خمس سنوات، يسقط في حفرة مقام السيد، عند إنشائه، وهي بعمق ستّة أمتار، وقعرُها من حديد.. فلكرامة السيّد وقداسة مقامه لم يُصَبْ هذا الطفل بأيّ أذى!.

أمّا السيّد علي الموسوي فيتحدّث عن ثلاث نسوة أتين من البحرين.. إحداهنّ كانت أمّها مريضةً جدّاً وقد يئس من شفائها الأطبّاء. فأشار عليها الخيّرون بالسفر إلى لبنان وزيارة مقام السيّد عبّاس الموسوي في النبي شيت. فجاءت مع قريبتَيْها، وراحت تتمرّغ على بلاط الضريح وتدعو الله تعالى أن يشفي أمّها ببركة السيّد عبّاس.

وعندما عادت إلى بيتها في البحرين فوجئت بأنّ أمّها بصحّة

جيّدة، وهي تمشي بشكل طبيعي من غير علاج أو دواء!.

ويُؤكّد السيّد علي بأنّ المراسلة بينهم وبين تلك المرأة ما زالت قائمة إلى اليوم، وهي تُردّد في رسائلها: ببركة السيّد عبّاس ﷺ شُفيت أمّي!..

مع كلّ نصر جديد...

وبعدُ، فهذا هو السيّد عبّاس الموسوي، بل هذا قَبَسٌ من سيرته العطِرة...

هذا الذي كان يذوبُ في عمله، وكانت حركتُه أوسعَ من الزمن... فعمِلَ جاهدًا لإيصالنا إلى غدٍ مُشْرقٍ عزيز، وإلى أُمّةٍ إسلاميَّةٍ موحَّدَة.

هو الذي رسّخ عند الشباب ثقافة العطاء والشهادة، وجَذَّرَ المقاومة في شرايين الأرض حتى أَخرجَتِ الرُّعبَ من قلوبنا وقذفَتْه في قلوب الأعداء. فاستبشَرَتِ الأمّةُ خيراً بقيادته...

هو العاشقُ لأنفاسِ المجاهدين وعِطْرِ الشهادة... فإذا استُدْعِيَ إلى اجتماع خارجَ الجبهة كان يقول: اتركوني... فحياتي هنا!. إنَّ تكليفي أن أكون في الجنوب مقاومًا... وأنا عبدٌ لكلّ مقاوم!.

كان يقبّلُ أيديَ المجاهدين... فلمّا سُئِلَ عن سرّ ذلك قال:

«هؤلاء هُم من يرفعُ شأننا...هُم من يرفعُ رايةَ الإسلام».

صلّى مع الأخوان صلاةَ عيد الفطر في المحور، وأمضى العيدَ

معهم، مُؤْثِرًا إيَّاهم على أهله وبنيه...

لقد علاَ، فتواضَع، فربطَ للمجاهدين أشرطةَ أحذيتهم... وقد عَرَفَ ذاتَ يوم، شهيدًا من خلال حذائه، عندما عُرِضَت العملية الجهادية على التلفاز، لكثرة ما رَبَطَ شريطَ هذا الحذاء!.

هو الذي لم ينَلْ من حلاوة الدنيا، شيئًا، وقد كانت ملكَ يديه... فخرج منها بريئًا من أبيضها وأصفرها[1]...

وبفضل إخلاصه لله، أخرجه الله من الدنيا مُخْرَجَ صِدْق، ليُدخِلَه مُدْخَلَ صِدْقٍ إلى جِنانه..

لقد أحبّ الناس وآثرهم على نفسه، وقدّم إخوانَه عليها إلَّا في الفداء.

وكان في حياته امتدادًا في أمل الأمّة ورجائها... فلمّا استُشهد بات امتدادًا في جراحها... فها هي دماؤه الثائرة وَقودًا لشعلة النار، تُنيرُ العُقولَ وتُثير الهِمَم وتُؤجّج جُذوة الثورة...

فيا سيّدي، يُشْهَدُ لك أنّك ما نَكَثْتَ عهدًا ولا خفرت ذِمامًا في حفظ الولاية وتأدية الأمانة!.

كنتَ مثال المتقين، كما في نهج الأميرعليه السلام، نفسُك منك في عَناء، والناسُ في راحة...

---

(١) أبيضُها وأصفرُها: كناية عن الفضَّة والذهَب.

عَظُمَ في قلبك حبُّ الله، فصغُرَ ما دونه في عينيك..فإذا، عندك، «كلُّ الذي فوق التراب تراب»...

لقد جَلَّلَكَ وقارُ حكمة الشيخ، فقُدْتَ المسيرة بأمان... وثار في عزيمتك عنفوانُ الفتى، فرُحتَ عاصفًا في الدنيا ضِدَّ الظلم والطغيان...

لَشَدَّ ما سَخَّرْتَ الجسدَ لقضايا الروح! فها أنت تَسْري حيويّةً في جسد الأمّة... وإذا بك وبأمّتك المجاهدة تصنعون التاريخ!.

نعم، سيّدي... وفَيْتَ للمقاومة أنصعَ الوفاء، فبادلك المقاومون الوفاءَ والعِرفان..

كم أخّروا عملية جهاديّة إلى حين حضورك!. يرفضون تنفيذها حتى تباركهم... لَكأنَّ شهادتهم، في يقينهم، غيرُ كافية للتقرّب بها إلى الله، ما لم يحصلوا منك على التبرِكة... فيما تُصِرُّ أنت على التبرُّكِ بتراب نعالهم!!.

وها إنَّ أبناءك المجاهدين أُولاء، وإخوانَك القادة ـ على رأسهم سماحة السيّد حسن نصر الله (حفظه الله) ـ ينقلوننا، بفضل زرع يديك، من نصر إلى نصر.. ومع كلّ نصر جديد يولَد عبّاسٌ جديد!.

سيّدي أبا ياسر، كان قدرُك أن تكون مبارَكًا يوم ولادتك، إذ قال

العباس عليه السلام للسيّدة والدتك في الرؤيا: «إلَيْكِ... هذا عبّاس، يقودُ أمّة»!.

وكنت مبارَكًا أيّام قُدْتَ المجاهدين إلى الحُسْنَيَيْن: الشهادة والنصر!

وكنت مبارَكًا يوم شهادتك، فتحوّل دمُكَ الهادر إلى بركان غضب يهدّدُ العدوَّ بالزوال...

فسلامٌ عليك يومَ وُلِدْت.. وسلامٌ عليك يوم استُشهدت... وسلامٌ عليك يوم يبعثُك الله حيًّا، جنديًّا مجاهدًا في جيش إمام العصر والزمان، إمامِنا المهديّ عجَّلَ الله فرَجَه الشريف!.

نبذة عن حياة المؤلف

إبراهيم منصور: كاتب وشاعر لبناني من مشغرة في البقاع الغربي. وُلد في بيروت عام ١٩٤٣، وتعلّم في بعض مدارسها الرسمية.

نال إجازة تعليمية في اللغة العربية وآدابها من كليّة الآداب في الجامعة اللبنانية، حيث تابع دراساته العليا فحاز شهادة الماجستير.

عمل في حقل التربية والتعليم أستاذًا ثانويًّا ومُشرفًا تربويًّا عامًّا، ومديرًا للقسم الثانوي في بعض المؤسّسات التربويّة.

نشر مجموعة من القصائد والأقاصيص في عدد من الصحف والمجلّات.

طُبع له من الكتب:

"رحلة العمر" (سيرة ذاتية)، ١٩٩٧ ـ "مذكّرات هرّة" (قصّة)، ١٩٩٩ ـ "أغرب محاكمة" (قصّة)، ٢٠٠٧ ـ "تفسير الأحلام الحديث"، ٢٠٠٨ ـ "التحدّي الكبير" (قصّة ومباراة فكريّة)، ٢٠٠٩ ـ "شبح حزب الله" (قصّة شهيد)، ٢٠٠٩.

وله قيد الطبع:

أميرة المُبْصِرين (قصة) ـ "فوق البركان" (ديوان شعر) ـ الكرّار (قصة شهيد) ـ "أحلامُك، كيف تفسّرها؟" ـ "يحيى في المزرعة" (قصة) ـ "في إفريقيا كانت لنا أيّام" (قصّة) ـ "هذا عبّاس يقود أُمّة" (سيرة سيّد شهداء المقاومة الإسلاميّة) بين يدي القارئ.

الفهرس